بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الواحد القهار، العظيم الجبار، الكبير المتعال، الذي جعلنا للبلوى والاختبار، وأعد لنا الجنة والنار، فعظُم لذلك الخطر، وطال لذلك الحُزْن لمن عقل وادَّكر، حتى يعلم أين المصير، وأين المستقر، لأنه قد عصى الرب وخالف المولى، وأصبح وأمسى بين الغضب والرضا، لا يدري أيهما قد حل ووقع له، فعظُم لذلك غمُّه، وطال لذلك حُزْنه، واشتد كربُه، حتى يعلم كيف عند الله حاله، فإلى الله؛ فارغب في التوفيق، وإياه؛ فسَلِ العفوَ عن الذنوب، وبه؛ فاستعن في كلِّ الأمور[1].

وأشهد أَن مُحَمَّدًا عَبدُه وَرَسُولُه، بلَّغ الرسالَة، وَأدَّى الْأَمَانَة، وجاهدَ فِي الله حقَّ جهاده؛ فصلوات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ، وعَلى آله وَصَحبه، وَمَنِ اتَّبع هَدْيه إِلَى يَوْم الدِّين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

(١) «التوهم» للمحاسبي (ص: ٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

«... فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ...»[1].

أحبتي: إنَّ هذه الدنيا التي نعيش فيها ما نحن فيها إلا أيام معدودات إذا ذهبَ يومٌ ذهب بعضك، حتى يأتيك زائرٌ بلا ميعاد، إنه الزائر الذي لا يأتي إلا مرة واحدة، إنه الزائر الذي لا يفرق بين غني وفقير، ولا صحيح ومريض، ولا قوي وضعيف، ولا كبير وصغير، ولا رجل وامرأة، ولا شيخ وشاب، ولا طفل ورضيع، ويزور جميع ولد آدم، إنه الزائر الذي ليس بعده زائر، والضيفُ الذي ليس بعده ضيف، ألا وهو **الموتُ**: مفرق الجماعات، وهادم اللذات، ومُيَتِّم البنين والبنات؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزُّمَر:٣٠].

فـ«**الموتُ** لا محالة نازلٌ بك، بكربه وغصصه ونزعه وسكراته؛ فكأني بك قد نزل بك وشيكًا سريعًا.

فتوهَّمْ نفسَكَ وقد صُرعتَ للموت صرعةً لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك.

فتوهَّمْ نفسَكَ في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه، وقد بدأ الملَك يجذب رُوحك من قدمك، فوجدتَ ألم جَذْبه من أسفل قدميك، ثم تدارك

(١) رواه مسلم مطولًا برقم (٢٠٤٢).

الجذب، واستحثَّ النزع، وجُذبت الروح من جميع بدنك، فنشطتْ من أسفلك متصاعدةً إلى أعلاك، حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه، وعمت آلام الموت جميعَ جسْمِك، وقلبُك وجِلٌ محزونٌ مرتقبٌ منتظرٌ للبُشْرى من الله ﷻ بالغضب أو الرضا، وقد علمتَ أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملَك الموكَّل بقبض روحك.

فبينا أنت في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته وشدة حزنك لارتقابك إحدى البشريين من ربك، إذ نظرتَ إلى صفحة وجْهِ مَلَكِ الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها، ونظرتَ إليه مادًّا يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك، فذَلَّتْ نفسك لمَّا عاينتَ ذلك وعاينتَ وجه ملك الموت، وتعلق قلبك بماذا يفجأك من البشرى منه، إذا سمعت صوته بنغمته: أبشر يا وليَّ الله برضا الله وثوابه، أو أبشر يا عدوَّ الله بغضبه وعقابه، فتستيقن حينئذٍ بنجاتك وفوزك، ويستقر الأمر في قلبك، فتطمئن إلى الله نفسك، أو تستيقن بعطبك وهلاكك،

ويحلُّ الإياس قلبك، وينقطع من الله ﷻ رجاؤك وأملك، فيلزم حينئذ غاية الهمِّ والحزن أو الفرح والسرور قلبَك، حين انقضتْ من الدنيا مدتك، وانقطع منها أثرُك، وحُملتَ إلى دار من سلف من الأمم قبلك»[(١)].

دخلوا على الشافعيِّ وهو يموت؛ فقيل له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجاءي نحو عفوك ربي سلَّما

(١) «التوهم في وصف أحوال الآخرة» للحارث المحاسبي (ص: ٧).

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منَّة وتكرُّما[١]

ولما حضرتْ إبراهيمَ النخعيَّ الوفاةُ بكى؛ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولًا يبشرني بالجنة أو بالنار[٢].

«ليذكُر الإنسان الموت كلَّ ليلة مع منامه؛ بل ويذوق طعمه وإمكانية حدوثه، إن ظن لحظةً أنه معمر، أو مخلَّدٌ، رُبَّ شروقٍ بلا غروب.. رُبَّ ليلٍ بغير نهار.. كم من رجلٍ أمسى من أهل الدنيا وأصبح من أهل الآخرة!! وكم من رجلٍ بات يُقَسِّم ميراث أبيه؛ فلما حلَّ الصباح لحق بأبيه»!![٣].

فيا إخوتي الكرام.. إنها رسالة سميتها: «**زائر بلا ميعاد**»، جمعتُ فيها ما يتعلق بالموت وسكراته، وما هي الأسباب التي بها تحسن خاتمتنا؟ وذكرتُ بعض قصص الصالحين والعصاة عند موتهم، لعلنا ننتفعُ بما فيها.

وأسألُ الله العظيم أن يسترنا جميعًا في الدنيا والآخرة، وأن يلحقنا بالصالحين، وإلى مباحث الرسالة، وبالله التوفيقُ:

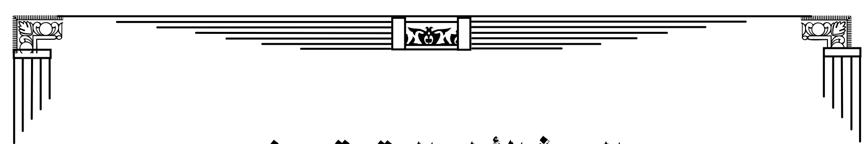
❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٤٣٠)، وابن الجوزي في «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٠/ ١٣٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٣٧)، وأحمد في «الزهد» (٢١٢٠) من طريق النخعي، به.

(٣) «الموت الضيف الأخير» (ص: ٦)، و«موسوعة خطب المنبر – الإصدار الثاني» (ص: ٣٧١٣).



المبحث الأول: الموت وتعريفه

إن الموت نهايةُ كل مخلوق، ومصيرُ كلِّ حي...، لقد استوقف أمام جلالته العلماء، وأسكت الفصحاء، وأعيا المفكرين والأدباء.. إنه الموت.. بدايةُ رحلةٍ عظيمة، تملأ النفس روعة ورهبة، في موقف عصيب يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في خوفٍ وحذرٍ وتوجس...

يقول أحدُهُم: فضح الموت الدنيا لم يدع لذي لب فرحًا.

ولما احتُضر أحدُ السلف - بكى، فقيل له: وما يبكيك؟ فقال: بُعْدُ المفازة، وقلَّةُ الزاد، وعَقبةٌ كئود، المهبط منها إلى جنةٍ أو إلى نارٍ.

إنه موقف يزيد القلوب حساسية ورهبة واستحياء..، ويكشف للإنسان ما كان مخفيًّا عنه من أسرار الغيب، ويظهر له خلف الحُجُب ويرى موعود الربِّ جلَّ وعلا.. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق:٢٢].

إنه موقف مؤثِّر، وذكرى لمن كان له قلب، ذكرى كافية ليعيش الإنسان في حذر دائم، وخشية دائمة، ويقظة لا تغفل عن المحاسبة.

فالموتُ هو المصيبة العظمى، والرزيَّةُ الكبرى، وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذِكْره، وقلَّة التفكُّر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرةً لمَن اعتبر، وفكرةً لمن تفكَّر، ويُروى أنَّ أعرابيًّا كان يسير على جملٍ له، فَخَرَّ الجملُ ميتًا، فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به، ويتفكَّر فيه، ويقول: مالَكَ لا تقوم؟ مالَكَ لا تنبعثُ؟ هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك سالمة؟! وما شأنك؟ ما الذي كان يحملك؟ ما الذي كان يبعثك؟ ما الذي صرعك؟ ما الذي عن الحركة

منعك؟ ثم تركه وانصرف؛ متفكرًا في شأنه، متعجبًا من أمره[١].

أولًا: تعريف الموت: هو «انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدلُ حالٍ، وانتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ»[٢].

ثانيًا: الإيمان به.

الإيمان بالموت الذي هو المفضي بالعبد إلى منازل الآخرة، وهو ساعة كل إنسان بخصوصه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا فَلَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**»[٣].

(١) «التذكرة» للقرطبي (١/ ١١٢).

(٢) «التذكرة» للقرطبي (١/١١٢).

(٣) رواه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢)، واللفظُ بتمامه عن عائشة ﵂ قالت: كَانَ الْأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ مَتَى السَّاعَةُ، فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا...**» الحديث.

وتوضيح ذلك فيما قاله الإمام النوويُّ في «شرح مسلم» (١٨/٩٠): «قَوْلُهُ: (سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ مَتَى هِيَ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا الْغُلَامُ فَعَسَى أَنْ لَا يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حَتَّى تَقوم السَّاعَةُ**».

وفي رواية: «**إِنَّ عُمِّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنْ يُؤَخَّرْ هَذَا**».

قَالَ الْقَاضِي: هَذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَعْنَى الْأَوَّلِ، وَالْمُرَادُ بِسَاعَتِكُمْ: مَوْتهمْ، وَمَعْنَاهُ: يَمُوتُ ذلك القرن، أو أولئك الْمُخَاطَبُونَ. قُلْتُ: وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ الغلام لا يبلغُ الهَرَمَ، ولا يُعَمَّر ولا يُؤَخَّر».

وهذا الإيمان بالموت يتناول أمورًا؛ منها[(١)]:

١- تَحَتُّمُهُ عَلَى مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ:

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٨٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٦]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزُّمَر:٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[السجدة:١١].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ -الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ- أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**»[(٢)].

٢- أن الأجل محدود:

إِنَّ كُلًّا لَهُ أَجَلٌ مَحْدُودٌ، وَأَمَدٌ مَمْدُودٌ، يَنْتَهِي إِلَيْهِ، لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يُقَصِّرُ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ ذَلِكَ بِعِلْمِهِ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ، وَجَرَى بِهِ الْقَلَمُ بِأَمْرِهِ يَوْمَ

---

(١) «معارج القبول» (٢/٧٠٣) وما بعدها.

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٨).

خَلْقِهِ، ثُمَّ كَتَبَهُ الْمَلَكُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ ﷻ عِنْدَ تَخْلِيقِ النُّطْفَةِ فِي عَيْنِهِ، فِي أَيِّ مَكَانٍ يَكُونُ، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ، فَلَا يُزَادُ فِيهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ، وَلَا يُغَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ عَمَّا سَبَقَ بِهِ، عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى: وَجَرَى بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَوْ حُرِقَ أَوْ غَرِقَ أَوْ بِأَيِّ حَتْفٍ هَلَكَ: بِأَجَلِهِ، لَمْ يَسْتَأْخِرْ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْتَقْدِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ السَّبَبَ الَّذِي كَانَ فِيهِ حَتْفُهُ هُوَ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَقَضَاهُ عَلَيْهِ، وَأَمْضَاهُ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْهُ، وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ، وَلَا مَفَرَّ لَهُ، وَلَا مَهْرَبَ وَلَا فِكَاكَ وَلَا خَلَاصَ، وَأَنَّى وَكَيْفَ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأٓخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ﴾[آل عمران:١٤٥] الآية. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ﴾[آل عمران:١٥٤] الآيات. وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾[النساء:٧٨]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف:٣٤]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾[الرعد:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[طه:١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد:٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجمعة:٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزُّمَر:٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٦٠] وغيرها من الآيات.

وَرَوَى مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّكِ سَأَلْتِ اللَّهَ تَعَالَى لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَآثَارٍ مَوْطُوءَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَا يُعَجَّلُ شَيْءٌ مِنْهَا قَبْلَ حِلِّهِ وَلَا يُؤَخَّرُ مِنْهَا يَوْمًا بَعْدَ حِلِّهِ، وَلَوْ سَأَلْتِ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ لَكَانَ خَيْرًا لَكِ»**[1].

وَفِي رِوَايَةٍ: **«قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّام مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»**[2]، وَفِي أُخْرَى: **«وَآثَارٍ مَبْلُوغَةٍ»**[3].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[فاطر:١١] يَقُولُ: «لَيْسَ أَحَدٌ قَضَيْتُ لَهُ بِطُولِ الْعُمْرِ وَالْحَيَاةِ إِلَّا وَهُوَ بَالِغٌ مَا قَدَّرْتُ لَهُ مِنَ الْعُمْرِ، وَقَدْ قَضَيْتُ ذَلِكَ لَهُ فَإِنَّمَا يَنْتَهِي إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي كُتِبَ لَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[فاطر:١١] يَقُولُ: كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ عِنْدَهُ»[4].

٣- الإيمان بأن الأجل لا يعلمه أحدٌ إلا الله.

الْإِيمَانُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْأَجَلَ الْمَحْتُومَ، وَالْحَدَّ الْمَرْسُومَ لِانْتِهَاءِ كُلِّ عُمْرٍ إِلَيْهِ لَا اطِّلَاعَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣) (٣٣).
(٢) رواه مسلم (٢٦٦٣) (٣٣م).
(٣) رواه مسلم (٢٦٦٣) (٣٣م).
(٤) **إسناده ضعيف:** رواه الطبري في «تفسيره» (٤٤٧/٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣١٧٥/١٠).

لَنَا عَلَيْهِ، وَلَا عِلْمَ لَنَا بِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ؛ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ؛ كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان:٣٤].

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ فِيهَا -أَوْ قَالَ: بِهَا- حَاجَةً**»[(١)].

٤- الإكثار من ذكر الموت.

ذِكْرُ الْعَبْدِ الْمَوْتَ، وَجَعْلُهُ عَلَى بَالِهِ، كَمَا هُوَ الرَّدْمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آمَالِهِ، وَهُوَ الْمُفْضِي بِهِ إِلَى أَعْمَالِهِ، وَإِلَى الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَإِلَى الْجَزَاءِ الْأَوْفَى مِنَ الْحُكْمِ الْعَدْلِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ؛ فَلَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ، وَلَا يَهْضِمُهُ ذَرَّةً مِنْ حُسْنِ أَعْمَالِهِ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ - وَصَحَّحَهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**» الْمَوْتَ[(٢)].

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله فِي كِتَابِ الرِّقَاقِ مِنْ «صَحِيحِهِ»: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» ... عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، وَكَانَ

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٧)، وأحمد (٤٢٩/٣) (١٥٥٧٨)، والحاكم (١٠٢/١) من حديث أبي عزة رضي الله عنه. قال الترمذي: «هذا حديث صحيح». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح، ورواته عن آخرهم ثقات». وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: «صحيح».

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (٤/٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وأحمد (٢٩٢/٢) (٧٩١٢)، وابن حبان (٢٥٩/٧)، وقال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: «حسن صحيح».

ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»(١).

ثُمَّ قَالَ: بَابٌ فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ، وقول الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥] بِمُزَحْزِحِهِ: بِمُبَاعِدِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر:٣]، وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ»(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا منه، وخط خطوطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: «**هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجْلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وهَذِه الْخُطُوطُ الصِّغَارُ: الْأَعْرَاضُ؛ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**»(٣).

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا؛ فَقَالَ: «**هَذَا الْأَمَلُ، وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخَطُّ الْأَقْرَبُ**»(٤).

٥- التأهُّبُ لَهُ.

التَّأَهُّبُ لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِمَا بَعْدَهُ قَبْلَ حُصُولِهِ، وَالْمُبَادَرَةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّعْيِ النَّافِعِ قَبْلَ دُهُومِ الْبَلَاءِ وَحُلُولِهِ، -وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ- إِذْ

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).
(٢) رواه البخاري معلقًا قبل حديث (٦٤١٧).
(٣) رواه البخاري (٦٤١٧).
(٤) رواه البخاري (٦٤١٨).

هُوَ الْفَيْصَلُ بَيْنَ هَذِهِ الدَّارِ وَبَيْنَ دَارِ الْقَرَارِ، وَهُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ سَاعَةِ الْعَمَلِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهِ، وَالْحَدُّ الْفَارِقُ بَيْنَ أَوَانِ تَقْدِيمِ الزَّادِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَيْسَ بَعْدَهُ لِأَحَدٍ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا اعْتِذَارٍ، وَلَا زِيَادَةٍ فِي الْحَسَنَاتِ وَلَا نَقْصٍ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَلَا حِيلَةٍ وَلَا افْتِدَاءٍ، وَلَا دِرْهَمٍ وَلَا دِينَارٍ، وَلَا مَقْعَدٍ وَلَا مَنْزِلٍ إِلَّا الْقَبْرَ، وَهُوَ إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ، إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَجَمْعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَأَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَالْمَوْقِفِ الطَّوِيلِ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوِيِّ الْمَتِينِ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ، الْمُقْسِطِ الْعَدْلِ، الْحَكِيمِ الَّذِي لَا يَحِيفُ، وَلَا يَجُورُ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، ثُمَّ إِمَّا نَعِيمٌ مُقِيمٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَإِمَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي نَارِ الْجَحِيمِ، وَإِنَّ لِكُلِّ ظَاعِنٍ مَقَرًّا، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرًّا، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠] الآيات، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾[الحشر:١٨] الآيات، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:٩- ١١]. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[الشورى:٤٤]، وَهَذَا سُؤَالُهُمُ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ ...

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾[المؤمنون:٩٩]، قَالَ: «كَانَ الْعَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ يَقُولُ: لِيُنْزِلْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَاسْتَقَالَ رَبَّهُ فَأَقَالَهُ، فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ رَبِّهِ تَعَالَى».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَاللَّهِ مَا تَمَنَّى إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَانْظُرُوا أُمْنِيَةَ الْكَافِرِ

الْمُفَرِّطِ فَاعْمَلُوا بِهَا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[(١)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**». وَلِلْحَاكِمِ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»[(٢)]، يَعْنِي: أَنَّ هَذِهِ الْخَمْسَ - أَيَّامَ الشَّبَابِ، وَالصِّحَّةِ، وَالْغِنَى، وَالْفَرَاغِ، وَالْحَيَاةِ - هِيَ أَيَّامُ الْعَمَلِ وَالتَّأَهُّبِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الزَّادِ؛ فَمَنْ فَاتَهُ الْعَمَلُ فِيهَا لَمْ يُدْرِكْهُ عِنْدَ مَجِيءِ أَضْدَادِهَا، وَلَا يَنْفَعُهُ التَّمَنِّي لِلْأَعْمَالِ بَعْدَ التَّفْرِيطِ مِنْهُ وَالْإِهْمَالِ فِي زَمَنِ الْفُرْصَةِ وَالْإِمْهَالِ؛ فَإِنَّ بَعْدَ كُلِّ شَبَابٍ هَرَمًا، وَبَعْدَ كُلِّ صِحَّةٍ سَقَمًا وَبَعْدَ كُلِّ غِنًى فَقْرًا، وَبَعْدَ كُلِّ فَرَاغٍ شُغْلًا، وَبَعْدَ كُلِّ حَيَاةٍ مَوْتًا، فَمَنْ فَرَّطَ فِي الْعَمَلِ أَيَّامَ الشَّبَابِ لَمْ يُدْرِكْهُ فِي أَيَّامِ الْهَرَمِ، وَمَنْ فَرَّطَ فِيهِ فِي أَوْقَاتِ الصِّحَّةِ لَمْ يُدْرِكْهُ فِي أَوْقَاتِ السَّقَمِ، وَمَنْ فَرَّطَ فِيهِ فِي حَالَةِ الْغِنَى؛ فَلَمْ يَنَلِ الْقُرَبَ الَّتِي لَمْ تُنَلْ إِلَّا بِالْغِنَى، لَمْ يُدْرِكْهُ فِي حَالَةِ الْفَقْرِ، وَمَنْ فَرَّطَ فِيهِ فِي سَاعَةِ الْفَرَاغِ، لَمْ يُدْرِكْهُ عِنْدَ مَجِيءِ الشَّوَاغِلِ، وَمَنْ فَرَّطَ فِي الْعَمَلِ فِي زَمَنِ الْحَيَاةِ، لَمْ يُدْرِكْهُ بَعْدَ حَيْلُولَةِ الْمَمَاتِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ وَقَدْ فَاتَ، وَيَطْلُبُ الْكَرَّةَ وَهَيْهَاتَ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَعَظُمَتْ حَسَرَاتُهُ حِينَ لَا مَدْفَعَ لِلْحَسَرَاتِ.

وَلَقَدْ حَثَّنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمَ الْحَثِّ، وَحَضَّنَا أَشَدَّ الْحَضِّ، وَدَعَانَا إِلَى اغْتِنَامِ الْفُرَصِ فِي زَمَنِ الْمُهْلَةِ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مَنْ فَرَّطَ فِي ذَلِكَ تَمَنَّاهُ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ؛ إِذْ يَقُولُ تَعَالَى فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ، دَاعِيًا عِبَادَهُ إِلَى بَابِهِ، يَا مَنْ يُسْمَعُ صَرِيحُ خِطَابِهِ، وَيُتَأَمَّلُ

---

(١) برقم (٦٤١٢).

(٢) رواه الحاكم (٤/ ٣٤١). وقال: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبيُّ. وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٧٧): «صحيح».

لَطِيفَ عِتَابِهِ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزُّمَر:٥٣-٥٩]، الآيات. وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾[الروم:٤٣] الآيات. وقال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾[الشورى:٤٧] الآيات. وغيرها». انتهى.

الاستعداد لنزول الموت

«اعلم (أخي) أن ذكر الموت يورثُ استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجُّهَ في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفكُّ عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة؛ فإن كان في حال ضيق ومحنة؛ فذكْرُ الموت يسهِّلُ عليه بعضَ ما هو فيه؛ فإنه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة؛ فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها.

ولقد أحسن من قال:

اذكــر المــوت هــادم اللــذات ... وتجهــز لمصــرعٍ ســوفَ يــأتي

وقال غيره:

واذكــر المــوت تجــد راحــة ... في إذكــار المــوت تقصــير الآمــل

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سنٌّ معلوم، ولا زمنٌ معلوم، ولا مرضٌ معلوم.

وذلك ليكون المرء علَى أُهبة من ذلك، مستعدًّا لذلك.

وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل. الرحيل.

فلما تُوفِّي فقد صوتَه أميرُ المدينة؛ فسأل عنه.

فقيل: إنه قد مات، فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال

فأصابه متيقظًا متشمرًا ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد، من ذا يترضى عنك ربك الموت؟ ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون؟ وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه. وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشيًّا عليه.

وقال التيمي: شيئان قَطَعَا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله تعالى.

وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ يجمع العلماء فيتذاكرون الموت، والقيامة، والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال أبو نعيم: كان الثوري إذا ذكر الموت لا يُنْتفع به أيامًا. فإن سُئِل عن شيء قال: لا أدري لا أدري.

وقال أحد الصالحين: من أكثر من ذكر الموت أُكْرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة وقناعة القلب، ونشاط العبادة.

ومن نسي الموت عُوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

فتفكَّرْ يا مغرورُ في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته.

فيا للموت مِنْ وعْدٍ ما أصدقَهُ، ومِنْ حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهادمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات؛ فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر، وغطوك من بعد لِيْنِ لحافك بترابٍ ومَدَر.

فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب.

فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدِمْتَ بأوزارك على مَنْ لا يعذرك.

ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[القصص:٧٧]؛ أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا، الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة، لا في الطين والماء والتجبر والبغي.

فكأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كلَّه ... رداءان تُلْوى فيهما، وحَنُوط

وقال آخر:

هـي القناعـة لا تبغـي بهـا بـدلًا فيهـا النعـيم وفيهـا راحـة البـدن

انظـر لمـن ملـك الـدنيا بأجمعهـا هـل راح منهـا بغـير القطـن والكفـن»(١)

فالمبادرة المبادرة قبل مُداهمةِ الموت...

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

قال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٥٥٩): «يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهَدَ قُبْح أعماله؛ فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾[المؤمنون:١٠٠] من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّآۚ﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدَّ لعاد لما نُهي عنه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخٌ، وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليُعِدُّوا له عُدَّته، وليأخذوا له أهبته».

---

(١) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (ص: ١٢٣).

وقال القاسمي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٢): «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾؛ أي: حتى إذا احتضر وشاهَدَ أمارات العذاب، وعاين وحشة هيئات السيئات، تمنَّى الرجوع، وأظهر الندامة، ونذر العمل الصالح في الإيمان الذي ترك. وقوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قولَهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلخ ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾؛ أي: لا يجاب إليها، ولا تسمع منه، يعني: أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة، والتلفظ بألفاظ التحسر والندم، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة. والآية نظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠]، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: حائل يحول بينهم وبين الرجعة، يلبثون فيه إلى يوم القيامة».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحشر:١٨] الآيات.

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٣/ ٢٩٩): «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدَّقوا الله ووحدوه، اتقوا الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

وقوله: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾ يقول: ولينظر أحدُكُم ما قدَّم ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيئات التي توبقه؟».

وقال السمعانيُّ في «تفسيره» (٥/ ٤٠٧): «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾[الحشر:١٨]، قال قتادة: ما زال يقرب الساعة حتى جعل كالغد.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الأمر بالتقوى على طريق التأكيد».

وقال صاحب «روح البيان» (٩/ ٤٤٧): «﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، فتحرَّزوا عن العصيان بالطاعة، وتجنَّبوا عن الكفران بالشكر، وتوقوا عن النسيان بالذكر، واحذروا عن الاحتجاب عنه بأفعالكم وصفاتكم بشهود أفعاله وصفاته ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ ما شرطية؛ أَيْ: أيُّ شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة، وعبَّر عن يوم القيامة بالغد؛ لدنوه؛ لأن كل آتٍ قريب، يعني سماه باليوم الذي يلي يومك؛ تقريبًا له.

وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾[يونس:٢٤] يريد تقريب الزمان الماضي أو عبر عنه به؛ لأن الدنيا؛ أي زمانها كيوم، والآخرة كغده؛ لاختصاص كل منهما بأحوالٍ وأحكامٍ متشابهة، وتعقيب الثاني الأول؛ فقوله: (لِغَدٍ) استعارةٌ يقول الفقير: إنما كانت الآخرة كالغد؛ لأن الناس في الدنيا نيام ولا انتباه إلا عند الموت الذي هو مقدمة القيامة؛ كما ورد به الخبر؛ فكل من الموت والقيامة كالصباح بالنسبة الى الغافل، كما أن الغد صباح بالنسبة إلى النائم في الليل، ودل هذا على أن الدنيا ظلمانية، والآخرة نورانية.

وتنكيره لتفخيمه وتهويله؛ كأنه قيل لغدٍ لا يعرفُ كنهه لغاية عظيمة، وأصله غدو حذفوا الواو بلا عوض، واستشهد عليه بقول لبيد:

وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

إذ جاء به على أصله، والبيت من أبيات العبرة، وأما تنكير (نَفْس) فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدَّمْنَ لذلك اليوم الهائل؛ كأنه قيل: ولتنظر نفس واحدة في ذلك؛ قال بعضهم: الاستقلال يكون بمعنى: عد الشيء قليلًا، وبمعنى: الانفراد في الأمر؛ فعلى الأول: يكون المراد استقلال الله النفوس الناطقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾؛ فكأنه أقيم الأكثر

مقام الكل؛ مبالغة، فأمر على الوحدة، فلا يضره وجود النفس الكاملة العاقلة الناظرة إلى العواقب بالنظر الصائب والرأى الثاقب، وعلى الثاني: يكون المرادُ: انفرادَ النفوسِ في النظر واكتفاءها فيه بدون انضمام نظر الأخرى في الاطلاع على ما قدمت خيرًا أو شرًّا قليلًا أو كثيرًا وجودًا أو عدمًا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تكرير للتأكيد والاهتمام في شأن التقوى وإشارة إلى أن اللائق بالعبد أن يكون كل أمره مسبوقًا بالتقوى، ومختومًا بها، أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل، والثاني في ترك المحارم، كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: عالم بما تعملونه من المعاصي، فيجزيكم يوم الجزاء عليها.

(وحكى) عن مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا أنه قال: دخلت جبانة البصرة؛ فإذا أنا بسعدون المجنون؛ فقلت له: كيف حالك؟ وكيف أنت؟ فقال: يا مالك كيف حال من أصبح وأمسى؟ يريد سفرًا بعيدًا بلا أهبة ولا زاد، ويقدم على رب عدل حاكمٍ بين العباد، ثم بكى بكاء شديدًا، فقلت: ما يبكيك؟ قال: والله ما بكيت حرصًا على الدنيا، ولا جزعًا من الموت والبلى؛ لكن بكيتُ ليوم مضى من عمرى، ولم يحسن فيه عملى، أبكاني والله قلةُ الزاد، وبعْدُ المسافة، والعقبة الكؤود، ولا أدري بعد ذلك أصير إلى الجنة أم الى النار؟ فقلت: إن الناس يزعمون أنك مجنون؛ فقال: وأنت اغتررت بما اغتر به بنو الدنيا، زعم الناس أني مجنون، وما بي جِنَّةٌ؛ لكنْ حُبُّ مولاي قد خالط قلبي، وجرى بين لحمي ودمي، فأنا مِنْ حبِّهِ هائمٌ مشغوف؛ فقلت: يا سعدون: فلم لا تجالس الناس، ولا تخالطهم؟ فأنشد:

كـــن مـــن النـــاس جانبـــًا ... وارض بـــــالله صـــــاحبًا

قلـــب النـــاس كيـــف شئـــت تجـــــدهم عقاربـــــًا

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٨٥٣): «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرًّا وعلانيةً، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم؟ وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة؟ فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير، أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصلٌ في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده، واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره؛ فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنًا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم، وأوضعوا في معاصيه؛ فهل يستوي مَنْ حافظ على تقوى الله ونَظَر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي

حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بيَّن، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد».

وقال القاسمي«تفسيره» **(٩/ ١٩٣)**: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

قال المهايمي: يعني: أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله؛ فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليغويكم بالكفر، ثم يتبرأ منكم.

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ أي: لما بعد الموت من الصالحات ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: فيجازيكم بحسبها.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾[الحشر:١٩]؛ قال ابن جرير: أي لا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات».

وقال ابنُ القيّم في «**دار السعادة**»: «تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفًا عظيمًا. وهو أن من نسي ربه، أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه،

بل نسي ما به صلاحه وفلاحه، في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملًا، بمنزلة الأنعام السائبة؛ بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه، لبقائها علي هداها الذي أعطاها إياه خالقها. وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسي ربه. فأنساه نفسه وصفاتها، وما تكمُلُ به، وتزكو به، وتسعد به في معاشها ومعادها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨]؛ فغفل عن ذكره ربه؛ فانفرط عليه أمره وقلبه؛ فلا التفات له إلى مصالحه وكماله، وما تزكو به نفسه وقلبه؛ بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدي سبيلًا؛ فالعلم بالله أصْلُ كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله، ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها، وما تزكو به وتفلح به. فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته». انتهى.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾؛ أي: الذين خرجوا عن الدين القيّم الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها. وخانوا وغدروا، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا». انتهى.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:٩-١١]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[الشورى:٤٤].

قال الحكميُّ(١): «وهذا سؤالهم الرجعة عند الاحتضار، وكذلك يسألون الرجعة عند معاينة العذاب يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ

(١) «معارج القبول» (٢/٨٦٧).

ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَ لَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم:٤٤] الآيات.

وكذلك يسألون الرجعة إذا وقفوا على النار، ورأوا ما فيها من عظيم الأهوال وشديد الأنكال والمقامع والأغلال والسلاسل الطوال، وما لا يصفه عقل ولا يعبر عنه مقال، ولا يغني بالخبر عنه ضرب الأمثال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٧، ٢٨] الآيات.

وكذلك يَسْألون الرجعة إذا وقفوا على ربهم، وعُرضوا عليه، وهم ناكسو رؤوسهم بين يديه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة:١٢] الآيات.

وكذلك يَسْألون الرجعة وهم في غمرات الجحيم وعذابها الأليم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحاً غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾[فاطر:٣٧] الآيات، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[غافر:١١] وغيرها من الآيات.

ويجمع كلَّ ذلك قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[الأعراف:٥٣] وغيرها من الآيات.

وروى الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي. فَيَكُونُ عَلَيْهِ**

حَسْرَةً قَالَ: وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَوْلاَ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي. قَالَ: فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا»(١).

... وحديث أبي هريرة ﷺ أيضًا عند مسلم: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا...» الحديث»(٢).

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب.

وقال العلماء: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور:

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين؛ فإن ذلك مما يلين القلوب.

الثاني: ذكر الموت؛ فيكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن في النظر إلى الميت، ومشاهدة سكراته، ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث عن العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

وذُكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات

(١) رواه أحمد (٢/ ٥١٢) (١٠٦٦٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٤٤٧)، والحاكم (٢/ ٤٧٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٩): «رواه كلُّه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٠٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٧).

الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم؛ فقالوا له: الطعام يرحمكم الله؛ فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم؛ فوالله رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

قال أبو الدرداء: من أكثر الموت قل فرحه، وقل حسده»[(١)].

قال الشاعر:

مشـــيناها خطـــًّا كتبـــت علينـــا ... ومـــن كتبـــت عليـــه خطـــا مشـــاها
وأرزاق لنـــــا متفرقـــــات ... فمـــن لم تأتـــه منـــا أتاهـــا
ومـــن كتبـــت منيتـــه بـــأرض ... فلـــيس يمـــوت في أرض ســـواها

وقال الشاعر:

وإذا وليـــت قومـــًا ليلـــة ... فـــاعلم بأنـــك بعـــدها مســـئول
وإذا حملـــت إلى القبـــور جنـــازة ... فـــاعلم بأنـــك بعـــدها محمـــول

وقال آخر:

هـــب الـــدنيا تســـاق إليـــك عفـــوًا ... ألـــيس مصـــير ذاك إلى انتقـــال
ومـــا دنيـــاك إلَّا مِثْـــلَ فيءٍ ... أظلَّـــك ثُـــمَّ آذن بـــالزوال[(٢)]

❁ ❁ ❁

(١) «التذكرة» للقرطبي (١/ ١٣٣) بتلخيصٍ.
(٢) «القيامة الصغرى» للأشقر (ص٧٩، ٨٠)، و«الإيمان باليوم الآخر» للصلَّابي (ص: ٣٦).



النهي عن الاغترار بالدنيا

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[المنافقون:٩-١١].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٣/ ٤٠٧): «يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ يقول: لا توجب لكم أموالكم ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ اللهو ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو مِنْ ألهيْتَهُ عن كذا وكذا، فلَهَا هو يلْهُو لهوًا؛ ومنه قول امرئ القيس:

وَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فألْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائمَ مُحْوِلِ

وقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ يقول: ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يقول: هم المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته تبارك وتعالى.

ويقول تعالى ذكره: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله من الأموال التي ﴿رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فيقول إذا نزل به الموت: يا ﴿رَبِّ﴾ هلَّا ﴿أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ فتُمْهِلَ لي في الأجل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ﴾ يقول: فأزكِّي مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقول: وأعمل بطاعتك، وأؤدّي فرائضك.

وقيل: عنى بقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأحجَّ بيتك الحرام.

وقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ يقول: لنْ يؤخِّر الله في أجل أحدٍ فيمدُّ له فيه إذا حضر أجلُه، ولكنه يخترمه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يقول: والله ذو خبرةٍ وعلمٍ بأعمال عبيده، هو بجميعها محيط، لا يخفى عليه شيءٌ، وهو مجازيهم بها، المحسنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته».

وقال البغوي في «تفسيره» (٥/ ١٠١): «قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾[المنافقون:٩]، لا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، قال المفسرون: يعني الصلوات الخمس، نظيره قوله: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[النور:٣٧] ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾[المنافقون:٩]؛ أي: من شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾[المنافقون:٩]. ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَـٰكُم﴾[المنافقون:١٠]، قال ابن عباس: يريد زكاة الأموال، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾[المنافقون:١٠]، فيسأل الرجعة، ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾[المنافقون:١٠]، هلَّا أخرتني أمهلتني. وقيل: «لا» صلة، فيكون الكلام بمعنى التمني؛ أي: لو أخرتني، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾[المنافقون:١٠]، فأتصدق وأزكي مالي، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[المنافقون:١٠]؛ أي: من المؤمنين.

نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾[غافر:٨]، هذا قول مقاتل وجماعة. وقالوا: نزلت الآية في المنافقين. وقيل: نزلت الآية في المؤمنين.

والمراد بالصلاح هنا: الحج. وروى الضحاك، وعطية عن ابن عباس قال: ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت. وقرأ هذه الآية وقال: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[المنافقون:١٠]، قرأ أبو عمرو «وأكون» بالواو ونصب النون على جواب التمني، وعلى لفظ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، قال: إنما حذفت الواو من المصحف اختصارًا.

وقرأ الآخرون: «وأكن» بالجزم عطفًا على قوله «فأصدق» لو لم يكن فيه الفاء؛ لأنه لو لم يكن فيه فاء كان جزمًا. يعني: إن أخرتني أصدق وأكن، ولأنه مكتوب في المصحف بحذف الواو».

وقال ابنُ كثير في «تفسيره» (٨/ ١٣٣): «يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهيًا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبرًا لهم بأنه مَنِ الْتَهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته؛ فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠]؛ فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار؛ فكما قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم:٤٤] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:١١]؛ أي: لا ينظر أحدًا بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شرٍّ مما كان عليه، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:١١]».

وقال القاسميُّ في «تفسيره» (٩/ ٢٤٠): «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[المنافقون:٩]؛ أي: لا يشغلكم الاغتباط بها عن ذكر أمره ونهيه، ووعده ووعيده، أو ذكر ما أنزله وأوحى به. ومنه أن العزة لله

ولرسوله وللمؤمنين. فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالي المؤمن بعزة المال والولد، مع عزة الله ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[المنافقون:٩]؛ أي: المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[الحشر:١٩]. ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ﴾[المنافقون:١٠]؛ أي: أتصدق وأخرج حقوق مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾؛ أي: لن يؤخر في أجل أحدٍ إذا حضر، ولكن يخترمه.

قال القاشاني: معنى قوله: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[المنافقون:٩] إن صدقتم في الإيمان، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شيء، فلا تكن محبتهم ومحبة الدنيا، من شدة التعلق بهم وبالأموال، غالبة في قلوبكم على محبة، فتحتجبوا بهم عنه، فتصيروا إلى النار، فتخسروا نور الاستعداد الفطري بإضاعته فيما يفنى سريعًا، وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها، ليكون فضيلة في أنفسكم، وهيئة نورية لها؛ فإن الإنفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيئة التجرد في النفس. فأما عند حضور الموت؛ فالمال للوارث لا له، فلا ينفعه إنفاقه، وليس إلا التحسر والتندم، وتمني التأخير في الأجل بالجهل، فإنه لو كان صادقًا في دعوى الإيمان، وموقنًا بالآخرة لتيقن أن الموت ضروريٌّ، وأنه مقدر في وقت معين قدره الله فيه بحكمته، فلا يمكن تأخره.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[المنافقون:١١] أي: بأعمالكم ونياتكم. فلا ينفع الإنفاق في ذلك الوقت ولا تمني التأخير في الأجل، ووعد التصدق والصلاح، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء، ولا عن التجرد والزكاء، بل من غاية البخل وحب المال، كأنه يحسب أنه يذهب به معه، وبأن ذلك التمني والوعد محض الكذب، ومحبة

العاجلة، لوجود الهيئة المنافية للتصدق والصلاح في النفس، والميل إلى الدنيا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨] والله أعلم».

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٧/ ٤٥٢): «﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، يقول: وما لذات الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾، يقول: إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل الذي لا حقيقة له عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار. فأنتم تلتذُّون بما متعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره. يقول تعالى ذكره: ولا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون.

وعن عبد الرحمن بن سابط في قوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، قال: كزاد الراعي، تزوده الكف من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه اللبن.

فكأن ابن سابط ذهب في تأويله هذا، إلى أن معنى الآية: وما الحياة الدنيا إلا متاع قليل، لا يبلغ من تمتعه ولا يكفيه لسفره. وهذا التأويل، وإن كان وجهًا من وجوه التأويل، فإن الصحيح من القول فيه هو ما قلنا. لأن «الغُرُور» إنما هو الخداع في كلام العرب. وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لصرفه إلى معنى القلة، لأن الشيء قد يكون قليلًا وصاحبه منه في غير خداع ولا غرور. وأما الذي هو في غرور، فلا القليل يصح له ولا الكثير مما هو منه في غرور. و«الغُرُور» مصدر من قول القائل: «غرني فلان فهو يغرني غرورًا» بضم «الغين». وأما إذا فتحت

«الغين» من «الغرور»، فهو صفة للشيطان الغرور، الذي يغر ابن آدم حتى يدخله من معصية الله فيما يستوجب به عقوبته».

وقال أبو السعود في «تفسيره» (٢/ ٥): «﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾[آل عمران:١٨٥]؛ أي: لذاتها وزخارفُها ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥] شبِّهت بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويُغَرّ حتى يشتريَه، وهذا لمن آثرها على الآخرة؛ فأما من طلب بها الآخِرةَ؛ فهي له متاعٌ بلاغٌ، والغُرور إما مصدرٌ أو جمعُ غارٍ».

وقال ابن الجوزي في «تفسيره» (١/ ٣٥٥): «قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥] يريد أن العيش فيها يغر الإنسان بما يمنِّيه من طول البقاء، وسيقطع عن قريب. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها».

وقال ابنُ كثير في «تفسيره» (٢/ ١٧٨): «وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥] تصغيرًا لشأن الدنيا، وتحقيرًا لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى:١٦، ١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل:٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[القصص:٦٠].

وقال قتادة في قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥] هي متاع، هي متاع، متروكة، أوشكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ١٥٩): «هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدَعُ بغرورها،

وتَغُرُّ بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي تُوفَّى فيها النفوسُ ما عملت في هذه الدار، من خيرٍ وشرٍّ».

وقال النبي ﷺ: **«أَكْثِرُوا ذِكْر هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»** يَعْنِي المَوْتَ(١).

قال الشيخ الأتيوبيُّ - نزيلُ مكة - في «ذخيرة العقبى في شرح المُجْتبى» (١٨/ ٢١٩): «و«الهاذم»: بالذال المعجمة بمعنى القاطع، أو بالمهملة، من هدم البناء، والمراد به الموت، وهو هاذم اللذات، إما لأن ذكره يزهّد فيها، أو لأنه إذا جاء ما يُبقي من لذائذ الدنيا شيئًا.

قال ميرك: وصحح الطيبيّ كونه بالدال المهملة، حيث قال: شبّه اللذات الفانية، والشهوات العاجلة، ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة، ثم أمر المُنهَمِك فيها بذكر الهادم، لئلاّ يستمرّ على الركون إليها، ويشتغل عما يجب عليه من التزوّد إلى دار القرار انتهى كلامه.

لكن قال الإسنويّ في «المهمّات»: الهاذم بالذال المعجمة: هو القاطع، كما قاله الجوهريّ، وهو المراد هنا، وقد صرح السهَيْلي في «الروض الأنف» بأن الرواية بالذال المعجمة، ذَكَرَ ذلك في غزوة أُحُد، في الكلام على قتل وَحْشيّ لحمزة رضي الله عنه.

وقال الجزريّ: هادم يُروى بالدال المهملة: أي دافعها، أو مخرّبها، وبالمعجمة؛ أي: قاطعها، واختاره بعض مشايخنا، وهو الذي لم يصحّح الخطّابيّ غيره، وجعل الأول من غلط الرواة. كذا في «المرقاة».

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذيُّ (٢٣٠٧)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وابن حبان (٢٩٩٢) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الحافظ في «التلخيص»: «ذكر السهيليُّ في «الروض الأنف» أن الرواية فيه بالذال المعجمة، ومعناه القاطع، وأما بالمهملة، فمعناه؛ المزيل للشيء، وليس ذلك مرادًا هنا، وفي هذا النفي نظر لا يخفى». انتهى كلام الحافظ.

قال الأمير الصنعانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يريد: أن المعنى على الدال المهملة صحيحٌ؛ فإن الموت يُزيل اللذّات كما يقطعها، ولكن العمدة الرواية». انتهى.

والحديث دليلٌ على أنه ينبغي للإنسان أن لا يغفل عن ذكر أعظم المواعظ، وهو الموت؛ لأنه أزجر عن المعصية، وأدعى إلى الطاعة، والله تعالى أعلم».

وفي «الصحيحين»[1] عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصَى فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ ، إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ عِنْدَهُ مَكْتُوبَةٌ**»، وفي رواية مسلم: «**يَبِيتُ ثَلَاثَ لَيَالٍ**»، قال ابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما مرَّت عليَّ ليلةٌ منذ سمعتُ رسولَ الله ﷺ قالَ ذلك إلَّا وعنْدِي وَصِيَّتِي.

قال صاحب «تحفة الأحوذي» (٦/ ٥١٥): «قال: كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، قال الطيبي: ليست أو للشك؛ بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى: بل؛ فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه، ولا مسكن يسكنه، ثم ترقَّى وأضْربَ عنه إلى عابر السبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة، بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع بينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة، وقطَّاع طريق؛ فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة، ولا يسكن لمحة، ومن ثم عقَّبه بقوله: إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباحَ إلخ، وبقوله: وعد نفسك في أهل القبور، والمعنى: استمر سائرًا، ولا تفتر؛ فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية، وهذا معنى المشبه به، وأما المشبه؛ فهو قوله: وخذ من صحتك لمرضك؛ أي: أن العمر لا يخلو عن صحة ومرض؛ فإذا كنت صحيحًا فسِرْ سير

(١) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم(١٦٢٧).

القصد، وزد عليه بقدر قوتك، ما دامت فيك قوة، بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائمًا مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف. ذكره الحافظ في «الفتح».

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «معنى الحديث: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه». انتهى.

وعدَّ نفسك بضم العين المهملة وفتح الدال المشددة؛ أي: اجعلها معدودة من أهل القبور؛ أي: من جملتهم وواحدة من جماعتهم؛ ففيه إشارة إلى ما قيل: موتوا قبل أن تموتوا، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا».

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «قالوا في شرح هذا الحديث معناه : لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريبُ الذي يريد الذهاب إلى أهله»[1].

وفي «صحيح» البخاري[2] عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

أي: لا تركننَّ إليها، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدِّثْ نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريبُ الذي يريد الذهاب إلى أهله[3].

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣٧٠).
(٢) برقم (٦٤١٦).
(٣) «رياض الصالحين» (ص: ١٧٥).

تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

وقال رسول الله ﷺ: **«اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ»**(١).

وقال أحدهم: لكل شيء زينة، وزينة العبادة: الخوف، وعلامة الخوف: قصر الأمل.

وقيل لآخر: ألا تغسل قميصك، فقال: الأمر أعجل من ذلك.

اعلم أنه يسنُّ لكلِّ واحدٍ من المكلَّفين إكثارُ ذكر الموت، وينبغي أن يستعد له بالتوبة إلى الله تعالى، ورد المظالم، والمريض آكد؛ لأنه يرقُّ به قلبه، ويخاف؛ فيرجع عن المظالم، ويقبل على الطاعات.

واعلم أن بني آدم طائفتان:

طائفة نظروا إلى شاهد خيال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل، ولم يتفكروا في النفس الأخير.

وطائفة عقلاء جعلوا النَّفَس الأخير نُصْب أعينهم؛ لينظروا ماذا يكون مصيرهم؟ وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم؟ وما الذي ينزل معهم من الدنيا في قبورهم؟ وما الذي يتركونه لأعدائهم؟ ويبقى عليهم وباله ونكاله؟ وهذه الفكرةُ واجبةٌ على كافة الخلق، وهي على الملوك وأهل الدنيا أوجبُ؛ لأنهم كثيرًا ما أزعجوا قلوب الخلق، وأدخلوا في قلوبهم الرعب؛ فإنَّ الحقَّ تَعَالى ذَكَرَهُ مَلَاكًا يعرف بملك الموت، لا مهرب لأحدٍ من مطالبته ونشبته، وكل موكلي الملوك يأخذون جُعْلهم ذهبًا وطعامًا، وهذا الوكيل لا يأخذ سوى

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٥) من حديث محمود بن لبيد. وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٤٥٢).

الروح جُعْلًا وسائر موكلي السلاطين تنفع عندهم الشفاعة، وهذا الموكل لا تنفع عنده شفاعة شافع، وجميع الموكلين يمهلون من يوكلون به اليوم والساعة، وهذا الموكَّل لا يهمل نفسًا واحدًا.

ويروى أنه كان مَلِكٌ كثيرُ المال قد جمع مالًا عظيمًا، واحتشد من كل نوع خلقه الله تعالى من متاع الدنيا ليرفه نفسه، ويتفرغ لأكل ما جمعه، فجمع نعمًا طائلةً، وبنى قصرًا عاليًا مرتفعًا ساميًا يصلح للملوك والأمراء والأكابر والعظماء، وركَّب عليه بابين محكمين، وأقام عليه الغِلْمان والأجلاد والحرسة والأجناد والبوابين كما أراد، وأمر بعض الأنام أن يصطنع له من أطيب الطعام، وجمع أهله وحشمه وأصحابه وخدمَهُ ليأكلوا عنده، وينالوا رفده، وجلس على سرير مملكته، واتكأ على وسادته، وقال: يا نفس قد جمعت أنعم الدنيا بأسرها؛ فالآن أفرغي لذلك، وكلي هذه النعم، مهنأة بالعمر الطويل، والحظ الجزيل، فلم يفرغ مما حدث نفسه حتى أتى رجل من ظاهر القصر عليه ثياب خلقة، ومخلاته في عنقه معلقة، على هيئة سائل يسأل الطعام، فجاء وطرق حلقة الباب طرقة عظيمة هائلة، بحيث تَزَلْزل القصر، وتزعزع السرير، وخاف الغلمان، ووثبوا إلى الباب، وصاحوا بالطارق، وقالوا: يا ضيف! ما هذا الحِرْصُ وسوءُ الأدب؟ اصبر إلى أن نأكل ونعطيك مما يفضل؛ فقال لهم: قولوا لصاحبكم أن يخرج إليّ؛ فلي إليه شغلٌ مهمٌّ وأمرٌ مُلِمٌّ؟ فقالوا له: تنح أيها الضيف مَنْ أنت حتى نأمر صاحبنا بالخروج إليك؟!

فقال: أنتم عرِّفوه ما ذكرت لكم؟ فلما عرَّفوه، قال: هلا نهرتموه وجرتم عليه وزجرتموه؟! ثم طرق حلقة الباب أعظم من طرقته الأولى، فنهضوا من أماكنهم بالعِصِيِّ والسِّلاح وقصدوه ليحاربوه فصاح بهم صيحة، وقال: ألزموا أماكنكم؛ فأنا ملك الموت، وطاشت حلومهم، وارتعدت فرائضهم، وبطلت عن الحركة

جوارحهم؛ فقال الملك: قولوا له ليأخذ بدلًا مني، وعوضًا عني؛ فقال: ما آخذ إلا روحك، ولا أتيت إلا لأجلك؛ لأفرق بينك وبين النعم التي جمعتها، والأموال التي حويتها وخزَّنتها؛ فتنفس الصعداء، وقال: لعن الله هذا المال الذي غَرَّني، وأبعدني، ومنعني من عبادة ربي، وكنت أظن أنه ينفعني؛ فاليوم صار حسرتي وبلائي، وخرجت صفر اليدين منه، وبقي لأعدائي؛ فأنطق اللهُ تعالى المالَ حتى قال: لأي سبب تلعنني؟!! العن نفسك؛ فإن الله تعالى خلقني وإياك من تراب، وجعلني في يدك لتتزود بي إلى آخرتك، وتتصدق بي على الفقراء، وتزكي بي على الضعفاء، ولتعمر بي الربط والمساجد والجسور والقناطر؛ لأكون عونًا لك في اليوم الآخر، جمعتني وخزنتني، وفي هواك أنفقتني، ولم تشكر حقي؛ بل كفرتني؛ فالآن تركتني لأعدائك، وأنت بحسرتك وبلائك؛ فأي ذنبٍ لي فتسبني وتلعنني، ثم إنَّ ملك الموت قبض روحه قبل أكل الطعام فسقط على سريره صريع الحمام[1]:

تجهز إلى الأجداث ويحك والرمس[2] ... جهازًا من التقوى لأطول ما حبس

فإنك لا تدري إذا كنت مصبحًا ... بأحسن ما ترجو لعلك لا تمسي

سأتعب نفسي كي أصادف راحة ... فإن هوان النفس أكرم للنفس

وأزهد في الدنيا فإن مقيمها ... كظاعنها[3] ما أشبه اليوم بالأمس

❀ ❀ ❀

(١) انظر «الاستعداد للموت» لزين الدين المعبري (ص: ٧).

(٢) **الرمس:** التراب تحمله الريح. «العين» (٧/ ٢٥٤) مادة رمس.

(٣) **الظاعن:** المودع. «تاج العروس» (٣٥/ ٣٦٣).



ذمُّ طولِ الأملِ

قال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[الحِجر:٣].

قال الطبريُّ في «**تفسيره**» **(١٧/ ٦٥)**: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ذَرْ يا محمدُ هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ما هم آكلوه، ويتمتعوا من لذاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويُلْههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها، وتزوُّدهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم، فسوف يعلمون غدًا إذا وردوا عليه. وقد هلكوا على كفرهم بالله وشركهم حين يعاينون عذاب الله أنهم كانوا مِنْ تمتعهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذات والشهوات كانوا في خسار وتباب».

وقال السمعاني في «**تفسيره**» **(٣/ ١٢٩)**: «﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾[الحِجر:٣]؛ أي: يشغلُهم الأملُ عن الآخرة».

وقال ابنُ الجوزي في «**تفسيره**» **(٢/ ٥٢٤)**: «﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾[الحِجر:٣]؛ أي: ويشغلهم ما يأملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[الحِجر:٣] إذا وردوا القيامة وبالَ ما صنعوا، وهذا وعيد وتهديد».

وقال القرطبي في «**تفسيره**» **(١٠/ ٢)**: «قوله: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾[الحِجر:٣]؛ أي: يشغلهم عن الطاعة. يقال: ألهاه عن كذا؛ أي: شغله. ولهي هو عن الشيء يلهى. ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا».

قال ابنُ كثير في «**تفسيره**» **(٤/ ٥٢٦)**: «﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾[الحِجر:٣]؛ أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم».

وقال الثعالبي في «تفسيره» (٣/ ٣٩٤): «وقوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾[الحِجر:٣]؛ أي: يشغلهم أملهم في الدنيا، والتزيُّد منها».

وقال السعديُّ «تفسيره» (ص: ٤٢٩): «﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾[الحِجر:٣]؛ أي: يؤملون البقاء في الدنيا؛ فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسرانًا عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى؛ فإن هذه سنته في الأمم».

قال عبدُ الحقِّ في «العَاقِبة»: «اعلم - رحمك اللَّه - أنَّ تقصير الأمل مَعَ حُبِّ الدنيا متعذِّرٌ، وانتظار المَوْتِ مع الإكباب عَلَيْها غَيْرُ مُتَيَسِّر، ثم قال: واعلم أنَّ كثرة الاشتغال بالدنْيَا والمَيْلَ بالكلِّية إليها، وَلَذَّةَ أمانيِّها تمنَعُ مرارةَ ذكْرِ المَوْت أَنْ تَرِدَ على القلْب، وأنْ تَلِجَ فيه؛ لأن القَلْبَ إذا امتلأ بشَيْءٍ، لم يكُنْ لشيءٍ آخر فيه مَدْخَلٌ؛ فإذا أَرَادَ صاحبُ هذا القَلْبِ سَمَاعَ الحِكْمَة، والانتفاع بالموعظة، لم يكُنْ لهُ بُدٌّ من تفريقه، لِيَجِدَ الذِّكْرُ فيه منزلًا، وتُلْفِيَ الموعظةُ فيه محلًا قابلًا، قال ابن السَّماك رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الموتَى لَمْ يبْكُوا من الموت لكنهم بَكَوْا مِنْ حَسْرة الفوت، فَاتَتْهُمْ - واللَّهِ - دَارٌ لَمْ يتزوَّدوا منها ودخلوا دارًا لم يتزوَّدوا لها. انتهى. وإنما حصل لهم الفَوْتُ بسبب استغراقهم في الدنيا، وطولِ الأمل المُلْهِي عن المعادِ، ألهمنا اللَّه رُشْدَنَا بمَنِّه».

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧]: «يعني: الشيب».

وقال علي بن أبي طالب: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون؛ فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»[1].

(١) رواه البخاريُّ معلقًا (٨/ ٨٩).

قال ابنُ حجر في «فتح الباري» (١١/ ٢٣٧): «قوله: «الدنيا مدبرة والآخرة مقبلة»؛ فعجب لمن يقبل على المدبرة ويدبر على المقبلة... وقيل: إن قصر الأمل: حقيقة الزهد! وليس كذلك؛ بل هو سببٌ؛ لأن مَنْ قصر أملُه زهِد، ويتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب؛ لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾[الحديد:١٦]، وقيل: من قصر أمله قلَّ همه، وتنور قلبه؛ لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة، وقلَّ همه، ورضي بالقليل.

وقال ابنُّ الجوزي: الأملُ مذمومٌ للناس، إلا للعلماء؛ فلولا أملهم لما صنَّفوا، ولا ألَّفوا، وقال غيره: الأمل مطبوع في جميع بني آدم كما سيأتي في الحديث الذي في الباب بعده: «لاَ يَزَالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الأَمَلِ»، وفي الأمل سرٌّ لطيفٌ؛ لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة؛ فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته. وقولُه في أثر علي: «فإن اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغدًا حساب ولا عمل، جعل اليوم نفس العمل والمحاسبة مبالغة وهو كقولهم نهاره صائم والتقدير في الموضعين ولا حساب فيه ولا عمل فيه».

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ يَزَالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الأَمَلِ**»(١).

وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ المَالِ، وَطُولُ العُمُرِ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٢١).



نذير الموت

عباد الله.. إن هذا الزائر الذي يأتي بلا معادٍ، يُرسِلُ لنا برقياتٍ قبلَ وصوله؛ رحمةً بنا؛ لعلَّنا نتوب؛ لعلَّنا نرجع، لعلَّنا نعود، ومن هذه البرقيات: المرض، الشيب، وغيرهما.

قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧]. قال البخاري (٨/ ٨٩): «يَعْنِي: الشَّيْبَ».

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٧): «وقوله ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر:٣٧]، اختلف أهل التأويل في مبلغ ذلك؛ فقال بعضهم: ذلك أربعون سنة... وقال آخرون: بل ذلك ستون سنة... وأشبه القولين بتأويل الآية... قول من قال: ذلك أربعون سنة؛ لأن في الأربعين يتناهى عقلُ الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عن كماله في حال الأربعين.

وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى النذير؛ فقال بعضهم: عنى به محمدًا ﷺ.

وقيل: عنى به الشيب.

فتأويل الكلام – إذن –: أولم نعمركم يا معشر المشركين بالله من قريش من السنين، ما يتذكر فيه من تذكر، من ذوي الألباب والعقول، واتعظ منهم من اتعظ، وتاب من تاب، وجاءكم من الله منذر ينذركم ما أنتم فيه اليوم من عذاب الله، فلم تتذكروا مواعظ الله، ولم تقبلوا من نذير الله الذي جاءكم ما أتاكم به من عند ربكم».

وقال السمعاني في «تفسيره» (٤/ ٣٦١): «وقوله: ﴿أَوَ لَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾[فاطر:٣٧]؛ أي: يقول الله تعالى لهم: ﴿أَوَ لَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر:٣٧] معناه: أو لم نعمركم العمر الذي يتذكر فيه من تذكر. واختلف القولُ في ذلك العمر؛ فالأكثرون على أنه ستون سنة، (وهذا) مرويٌّ عن علي ﷺ، وقد رَوَى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ**»[1]، وعن بعضهم: أنه أربعون سنة. وعن بعضهم: ثمانية عشر سنة. وقال الحسن البصري: هو البلوغ. وعن بعضهم: هو سبعون سنة؛ لأنه، عند ذلك يدخل في الهرم.

وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧]؛ أي: محمدٌ.

والقول الثاني: أنه الشيب، حُكِي ذلك عن وهب بن منبه وغيره. وفي الأثر: ما من شعرة تبيضُّ إلا قالت لأختها: يا أختي، استعدي فقد قرب الموت. وقال بعضهم: الشيب (حطام) المنية. وسماه بعضهم بريد الموت.

والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧] كل ما ينذر ويخوف بها. وفي غريب التفسير: أنه الحمى. وقيل أيضا: هو العقل».

وقال البغويُّ في «تفسيره» (٦/ ٤٢٥): «﴿أَوَ لَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر:٣٧] قيل: هو البلوغ. وقال عطاء وقتادة والكلبي: ثمان عشرة سنة. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال ابن عباس: ستون سنة، يروى ذلك عن علي، وهو العمر الذي أعذر الله تعالى إلى ابن آدم...

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧] يعني: محمَّدًا ﷺ، هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: القرآن. وقال عكرمة، وسفيان بن عيينة، ووكيع: هو الشيب. معناه: أولم نعمركم

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩)، ولفظه: «أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً». وسيأتي قريبًا.

حتى شبتم. ويقال: الشيب نذير الموت. وفي الأثر: ما من شعرة تبيض إلا قالت لأختها: استعدي فقد قرب الموت».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٦٩٠): «﴿أَوَ لَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا﴾[فاطر:٣٧]؛ أي: دهرًا وعمرًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر:٣٧]؛ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق، وقيضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنيبوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم، وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان، بأشر الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتم الرجعة؟ هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر:٣٧] ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها».

وقال القاسمي في «تفسيره» (٨/ ١٦٩): «أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر؟ قال قتادة: اعلموا أن طولَ العمر حجةٌ. فتعوَّذ بالله أن تغتر بطول العمر. وقد نزلت هذه الآية. وإن فيهم لابنُ ثماني عشرة سنة».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»**[1].

قال ابنُ بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: أعذر إليه غاية الإعذار، الذى لا إعذار بعده، لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله تعالى وترقب المنية ولقاء الله تعالى؛ فهذا إعذار بعد إعذار فى عمر ابن آدم، لطفًا من الله

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤١٩).

لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، وأعذر إليهم مرة بعد أخرى، ولم يعاقبهم إلا بعد الحجج اللائحة المبكتة لهم، وإن كانوا قد فطرهم الله تعالى على حبّ الدنيا وطول الأمل، فلم يتركهم مهملين دون إعذار لهم وتنبيه، وأكبر الإعذار إلى بنى آدم بعثه الرسل إليهم.

ومعنى الحديث: أنه لم يبق له اعتذار، كأن يقول: لو مُدَّ في عمري لفعلت ما أمرت به، وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له، فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة، والإقبال على الآخرة بالكلية، والمعنى: أن الله تعالى لم يترك للعبد سببًا في الاعتذار يصلح لأن يتمسك به...»[١].

وقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا مِنْ مَرَضٍ يَمْرَضُهُ الْعَبْدُ إِلَّا رَسُولُ مَلَكِ الْمَوْتِ عِنْدَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ مَرَضٍ يَمْرَضُهُ أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَتَاكَ رَسُولٌ بَعْدَ رَسُولٍ فَلَمْ تَعْبَأْ بِهِ، وَقَدْ أَتَاكَ رَسُولٌ يَقْطَعُ أَثَرَكَ مِنَ الدُّنْيَا». أخرجه أبو نعيم في «الحلية»[٢].

كل نفس ذائقة الموت

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

يخبر الله تعالى عباده بأن كلَّ نفسٍ ستذُوق طعمَ الموتِ، وتحسُّ بمفارقة الروح للجسد. واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الأرواح لا تموت بموت البدن؛ لأن الذوق شعورٌ لا يحسُّ به إلا الحيُّ، وهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت. ويوم القيامة يحشر الناس إلى الله، وتُوفى كلُّ نفس أجورها عما اكتسبته من أعمال، فمن

(١) «الفتح» (١١/ ٢٤٠). وانظر «الاستعداد للموت» لعلي بن نايف (ص: ١٩٦).
(٢) «الحلية» (٤٢٤٣) (٣/ ٢٩١)، وانظر: «فيض القدير» (٣٨٤٤).

جُنب النار، وأُدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز. والحياة الدنيا ليست إلا متاعًا تافهًا زائلًا، صاحبه مغرور مخدوع، وهو متاع متروك يوشك أن يضمحل عن أهله.

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل، ثم تأتي نهايتها حتمًا.. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد. يموت الشجعان الذين يأبون الضَّيْم، ويموتُ الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت.. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[آل عمران:١٨٥].. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس في تذوُّق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر.

الفارق في قيمة أخرى. الفارق في المصير الأخير: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾[آل عمران:١٨٥].. هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان.

القيمة الباقية التي تستحقُّ السعي والكد. والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾[آل عمران:١٨٥]..

ولفظ «زُحْزِحَ» بذاته يصور معناه بجرسه، ويرسم هيئته، ويلقي ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلًا قليلًا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز..

صورة قوية؛ بل مشهدٌ حيٌّ. فيه حركةٌ وشدٌّ وجذْبٌ! وهو كذلك في حقيقته

وفي طبيعته؛ فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس الإنسان - حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة - يظل أبدًا مقصرًا في العمل.. إلا أن يدركه فضل الله؟ بلى!

وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسان فضل الله، فيزحزحه عن النار! ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].. إنها متاع. ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعا. أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار.

وعند ما تكون هذه الحقيقة قد استقرت في النفس. عند ما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة - إِذْ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت على كلِّ حال - وأخرجت من حسابها حكاية متاع الغرور الزائل..[1].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:٥٧].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (١٨/ ٤٣٩): «وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[العنكبوت:٥٧] يقول تعالى ذكره: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها».

وقال السمعانيُّ في «تفسيره» (١/ ٣٨٦): « فإن قال قائلٌ: لا يخفى أن كل نفس تموت، فأيش الفائدة في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[العنكبوت:٥٧]؟ قيل: أراد به: التزهيد بالدنيا، يعني: أن النفوس إلى الفناء».

وقال القرطبيُّ في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٨): «وإنما ذكره - ها هنا -؛ تحقيرًا لأمر

(١) «الاستعداد للموت» (ص: ١٩)، وانظر «ظلال القرآن» (١/ ٥٣٨).

الدنيا ومخاوفها. كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقر الله شأن الدنيا؛ أي: أنتم لا محالة ميتون، ومحشورون إلينا؛ فالبدار إلى طاعة الله، والهجرة إليه، وإلى ما يمتثل؛ ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضًا منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه».

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٢٩١): «أي: أينما كنتم يدرككم الموت؛ فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله؛ فهو خير لكم؛ فإن الموت لا بد منه، ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب؛ فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب.

وقال صاحب «روح البيان» (٢/ ١٣٨): «﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:٥٧]؛ أي: تخرج وتنفك من البدن بأدنى شيء من الموت، فكنى بالذوق عن القلة، وهو وعدٌ ووعيدٌ للمصدق والمكذب من حيث إنه كناية عن أن هذه الدار بعدها دار أخرى يتميز فيها المحسن من المسيئ، ويتوفر على كل أحدٍ ما يليق به من الجزاء».

وقال القاسميُّ في «تفسيره» (٧/ ٥٦٣): «﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[العنكبوت:٥٧] تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى، أو تسلية للمهاجر إلى الله، وتشجيع له، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها. فلا المقام بأرضه يدفعه، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم، مُرِّه».

وقال صاحب «زهرة التفاسير» (٣/ ١٥٣٥): «ذكر سبحانه وتعالى هذه الكلية الثابتة لبيان الجمع الحاشد يوم القيامة الذي يتقدم فيه كل امرئٍ بما قدم من عمل، إن خيرًا فجزاؤه خير، وإن شرًّا فجزاؤه شر، وهنا إشارات بيانية رائعة ككل إشارات القرآن؛ وذلك لأنه عبر عن إقبال الموت بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق الموت

سيكون المذاق إمَّا مرًّا حنظلًا يومئ إلى ما يتبعه من عقاب، وإما أن يكون المذاق حلوًا هنيئًا، فيكون إيماء إلى ما يكون يوم القيامة من نعيم مقيم، والتعبير عن حلول الأجل في الدنيا بذوق الموت فيه استعارة بتشبيه الموت عند إقباله الرهيب أو الرغيب بالأمر الذي يذاق فيؤلم، أو يذاق فيسعد.

وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة، هي: أنه أسند ذَوْق الموت إلى النَّفْس، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس روح، والشخص جزءان جسم ونفس، وأن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم، فهي التي تذوق الموت، كما ذاقت الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال، فبعد أن كانت في غلاف من جسم من الطين، قد تجردت أبدًا منه حتى تلتقي به يوم البعث والنشور.

وبعد أن تذوق النفس طعم تلك النقلة من متاع الدنيا الزائل إلى الآخرِة، يكون الجزاء من نعيم أو جحيم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران:١٨٥].

والأجر هو العطاء خيرًا أو شرًّا، والقيامة هي قيام الساعة لرب العالمين، وتقويم أعمالهم من خير وشر بالميزان الدقيق، والحساب الذي لَا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فيوم القيامة هو الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، وتقوم أعمالهم من بين أيديهم وتنطق بها جوارحهم، وتُقَوَّم تلك الأعمال بقيمتها الحقيقية، ويذهب الزيف ولا يكون إلا الحق الخالص، ومعنى توفية الأجور إعطاؤها كاملة لَا نقص فيها، وإذا قلنا: إن الأجر هو العطاء، فإن مجازاة المسيء بقدر إساءته هو العطاء العدل.

والخطاب هنا للأشخاص لَا للنفوس وحدها؛ فذوق الموت للنفوس، ولكن الجزاء للأشخاص إذ تلتقي الجسوم بالنفوس، ولذلك خاطب الأشخاص؛ فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾[آل عمران:١٨٥].

وإن السياق الذي ذكرنا عليه أكثر المفسرين وهو أن توفية الأجر تشمل الثواب والعقاب، ولكن أرى أن روح الآية وما اقترن بها من بعد يدل على أن الجزاء هنا هو العطاء الصرف بنعيم يوم القيامة لمن يستحقونه، فالخطاب للمؤمنين تعزية للنبي ﷺ والمؤمنين عند تكذيب الكذبين، ولذا قال سبحانه إن أول عطاء هو البعد عمت النار؛ فقال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥].

الزحزحة عن النار: الإبعاد عنها، والتنحية عنها، وهو تكرار الزح بمعنى الإبعاد، والمعنى: أن من أبعد عن النار بعد تكرار التنحية عنها فقد فاز فوزًا مطلقًا، والنص يشير إلى أن أعمال الإنسان تُرديه ولا تنجيه، وأنه لكي يبعد عن النار ويتجنبها يكون كالمحتاج لمجهود، وتكرر الزح والتنحية كشيء ثابت ملازم لها، لا يبعد عنها إلا بمجهود، وذلك تصوير دقيق لعفو الله ورحمته وغفرانه، وأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تكرار الرحمة والمغفرة، وأن البعد عن النار ثم دخول الجنة هو أي الفوز، وهذا كله على أساس أن الزحزحة والتنحية في الآخرة التي هي دار الجزاء، ويصح أن يكون المعنى في الدنيا، بالأخذ في أسباب التوقي من النار، ودخول الجنة، ويكون السياق هكذا: من غالب شهواته وجاهد أهواءه، وإنها لصعبةُ المِراس تحتاج إلى صبر وضبط؛ فإنما يزحزح نفسه عن النار بتوقي أسبابها، ويدخل نفسه الجنة، واتخاذ الوسائل الموصلة إليها؛ فالزحزحة هي جهاد الأهواء التي هي أسباب النار، وليس ذلك التفسير ببعيد، وإن كان الأول أوضح وأبين.

ولقد بين سبحانه أن سبب العذاب هو الغرور في الدنيا، ولذا قال ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

في هذا النصِّ الكريم قَصْرُ الحياة الدنيا على حال واحدة، وهي أنها متاع يستمتع به الإنسان ويغريه حتى ينسيه متاع الآخرة، إن استولى عليه واستغرق

حسه ونفسه، والمعنى ليست هذه الحياة القوية منا التي نشاهدها ونراها، وهي في ذاتها الحد الأدنى للحياة، إلا متاعًا يستمتع به المغتر بها الذي يظن أنها كل شيء، وأما من يؤمن بأنها قنطرة الآخرة، فإنها تكون جهاد النفس، والسيطرة على الأهواء، ولقد قال الزمخشري في تفسير متاع الدنيا: «شبه الدنيا بالمتاع الذي يُدلس به على المُسْتام، ويغره حتى يشتريه، ثم يبين له فساده ورداءته، والمدلس هو الشيطان الغرور، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على طلب الآخرة».

اللّهم لَا تغرنا بهذه الدنيا، ووفقنا لأن نطلب ما عندك، وامنحنا ياذا الجلال والإكرام رضوانك، فهو أعلى ما يبتغيه المؤمن؛ إذ رضوانك أكبر من كل ما في الوجود يا رب الوجود».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ١٥٩): «هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر».

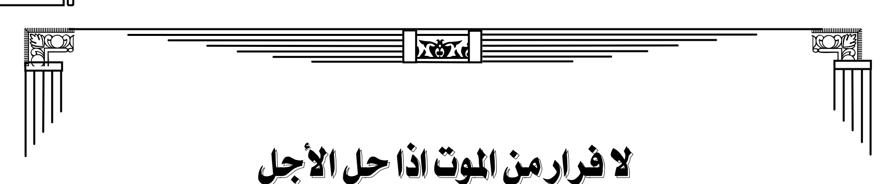
وقال الشيخ مصطفى العدوي في دروس صوتية له: «في كل يوم نشيع ميتًا، سواءً كان قريبًا، أو حبيبًا، أو حتى عدوًّا، وسواء كان عالمًا، أو جاهلًا، نشيع صغيرًا أو نشيع كبيرًا، نشيع شابًّا أو نشيع شيخًا، نشيع طفلًا رضيعًا أو نشيع عجوزًا شمطاء، والله ﷻ كتب الآجال على العباد، وما أحدٌ منا يدري متى أجله؛ فإن الله استأثر بهذا العلم عنده ﷻ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾[لقمان:٣٤]، والعقلاء منكم يفهمون ذلك، فمنا من كان يصلي معنا في الأسبوع الذي مضى، وهو الآن مع المقبورين، ولا ندري نحن عن أنفسنا هل نحن غدًا في عداد الأحياء وفي عداد أهل الدنيا، أم أننا من أهل القبور؟ الله أعلم بذلك كلّه، فإن الشخص ينام ولا يدري هل هو ممن قال الله فيهم: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى

ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزُّمَر:٤٢].

معشر الإخوة: كل نفس ذائقة الموت؛ كما أخبر ربنا ﷻ، والموت في نفسه مصيبة؛ كما قال الله سبحانه: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾[المائدة:١٠٦]، وللموت سكرات؛ فرسولنا ﷺ اعترته بعض هذه السكرات، وهو سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقد حضرته سكرات الموت ويدُهُ في ركوة فيها ماء، فجعل يمسح رأسه وجبينه ويقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٌ**»، هذا وهو نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وإن كان للموت سكرات، وإن كان لنزع الروح آلامٌ، وإن كان الفراق يؤلم ويوجع ويحزن؛ لكن ثَمَّ ما هو أعظم، وهو أن يموت العبد مفرطًا في حق الله، فليس كل ميت يُبْكى عليه، أما البكاء حق البكاء؛ فهو على رجل مات مفرطًا في جنب الله، مضيعًا لحقوق الله، البكاء حق البكاء على رجل مات تاركًا للصلاة متوعدًا بقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾[الماعون:٤، ٥]، متوعدًا بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم:٥٩]، البكاء حق البكاء على امرأة ماتت متبرجةً؛ يقول النبيُّ ﷺ في شأن المتبرجات: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا**»، البكاء حق البقاء على رجل مات، وهو آكلٌ للربا، أو آكلٌ لأموال الناس بالباطل، أو آكلٌ لأموال اليتامى ظلمًا، هذا الذي ينبغي أن تتصدَّعَ عليه الأكباد».

وفي «التفسير الميسر» (١/ ٣٢٤): «كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ لا محالةَ مَهْما عُمِّرتَ في الدنيا. وما وجودها في الحياة إلا ابتلاء بالتكاليف أمرًا ونهيًا، وبتقلب الأحوال خيرًا وشرًا، ثم المآل والمرجع بعد ذلك إلى الله - وحده - للحساب والجزاء».

❊ ❊ ❊



لا فرار من الموت اذا حل الأجل

إنَّ الله تَعَالَى خَلَق عباده، وقدَّر لهم آجالًا إليها ينتهون؛ فلا يتقدمون عنها ولا يتأخرون؛ كما قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة:٦٠].

وكتب أجلَ كلٍّ منهم في كتابٍ عنده لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[آل عمران:١٤٥].

وجعله حتمًا لازمًا لابد لكلّ نفس من تجرع غصصه ولو كان الميت رسولًا أو نبيًّا أو وليًّا؛ حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:٥٧]؛ إذ لا باقي إلا سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨].

وهو الوارث لجميع خلقه بعد فنائهم، وانقضاء آجالهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[مريم:٤٠].

وهو المحيي والمميت الذي بيده الإحياء والإماتة لا بيد العباد، وليس في ملكهم ومقدرتهم؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[آل عمران:١٥٦].

والعبد لا يمكنه أن يدفع غائلة الموت عن نفسه مهما بلغ حرصه عليها، ولذا

عاب الله على أهل النفاق تثبيطهم عن الجهاد بزعمهم أن القعود عنه ينجي من الموت[(١)]؛ فقال سبحانه في شأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران:١٦٨].

فالموتُ لا ينجي منه هرب، ولا يغني عنه جزع، ولا يدفع عنه حذر، ولو تُحصِّن منه بالقصور المنيعة، والمساكن الرفيعة؛ قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾[النساء:٧٨].

وقال السمعانيُّ في «تفسيره» (١/ ٤٤٩): «قوله تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾[النساء:٧٨]، معناه: أينما كنتم يأتيكم الموت، وإن كنتم في بروج مشيدة، والبروج: الحصون، قال السدي: وهي قصور بيض في السماء، قوله: ﴿مُّشَيَّدَةٖۗ﴾؛ قال ابن عباس - في القول المعروف -: هي المعروفة المطولة، وقال عكرمة: المشيدة: المجصصة، والشيد: الجص. وقال بعضهم: المشيد: المجصص، والمشيدة: المرفوعة، وفيه قول آخر عن ابن عباس: أنه أراد: في بروج من حديد».

وقال صاحب «التحرير والتنوير» (٥/ ١٢٨): «وجملة: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يجوز أن تكون من تمام القول المحكي بقوله: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾. وإنما لم تعطف على جملة: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ لاختلاف الغرضين؛ لأن جملة ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾، وما عطف عليها تغليط لهم في طلب التأخير إلى أجل قريب، وجملة: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ إلخ مسوقة لإشعارهم بأن الجبن هو الذي جملهم على طلب التأخير إلى أمد قريب، لأنهم توهموا أن مواقع القتال تدني الموت من الناس.

(١) «الثبات على دين الله» (١/ ١٠٤٦)، و«الإيمان باليوم الآخر» (ص: ٤٨).

ويحتمل أن يكون القول قد تمَّ، وأن جملة ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾ توجه إليهم بالخطاب من الله تعالى، أو توجه لجميع الأمة بالخطاب، فتكون على كِلَا الأمرْين معترضةً بين أجزاء الكلام. و﴿أَيْنَمَا﴾ شرط يستغرق الأمكنة ﴿وَلَوْ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ وصلية- وقد تقدم تفصيل معناها واستعمالها عند قوله:- في سورة آل عمران [٩١]: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[آل عمران:٩١]. والبروج جمع برج، وهو البناء القوي والحصن: والمشيدة: المبنية بالشيد، وهو الجص، وتطلق على المرفوعة العالية، لأنهم إذا أطالوا البناء بنوه بالجص، فالوصف به مراد به المعنى الكنائي. وقد يطلق البروج على منازل كواكب السماء؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[الفرقان:٦١]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾[البروج:١].

وعن مالك أنه قال: البروج هنا بروج الكواكب، أي: ولو بلغتم السماء. وعليه يكون وصف مشيدة مجازًا في الارتفاع، وهو بصير مجازًا في الارتفاع، وهو بعيد».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ١٨٨): «أي: في أي زمان وأي مكان. ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء:٧٨]؛ أي: قصور منيعة، ومنازل رفيعة، وكل هذا حثٌّ على الجهاد في سبيل الله، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودُهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها».

وقال أسعد حومد في «أيسر التفاسير» (ص: ٥٧١): «يخبر الله تعالى الناس بأنهم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منهم، ولو كانوا مقيمين في حصون مبنية، قوية البنيان والتحصين وللناس أجل محتوم، ووقت معلوم، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، سواء أجاهدوا وتعرضوا لمخاطر الحروب، أو قعدوا

في بيوتهم، فلا يقدم الجهاد أجلًا. ولا يؤخر القعود أجلًا؛ فلماذا يكرهون القتال، ويجبنون ويتمنون البقاء، أليس هذا بضعف في العقل والدين؟.

وقال القاسمي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٨): «﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟﴾؛ أي: في أي مكان تكونوا عند الأجل يدرككم الموت؛ أي: الذي لأجله تكرهون القتال، زعمًا منكم أنه من مظانه. وتحبون القعود عنه، على زعم أنه منجاة منه؛ أي: وإذا كان لا بد من الموت، فبأن يقع على وجه يكون مستعقبا للسعادة الأبدية، كان أولى من أن لا يكون كذلك. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٦]. ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾؛ أي: حصون ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾؛ أي: مرفوعة مستحكمة. لا يصل إليها القاتل الإنساني. لكنها لا تمنع القاتل الإلهي؛ كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسبابَ السماء بسُلَّم».

فلا ينجو من الموت فار، ولا يسلم منه هارب، وقد أبان الله ذلك لليهود مع كراهيتهم له، وخوفهم منه، وكما قال تعالى – أيضًا –: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجمعة:٨].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٣٧٩/٢٣): «﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾؛ فتكرهونه، وتأبون أن تتمنوه ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ ونازل بكم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ثم يردكم ربكم من بعد مماتكم إلى عالم الغيب والشهادة، عالم غيب السموات والأرض؛ والشهادة: يعني: وما شهد؛ فظهر لرأي العين، ولم يغب عن أبصار الناظرين».

وقال الواحدي «الوجيز» (ص: ١٠٩٦): «﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أَيْ: لا بدَّ لكم منه يلقاكم وتلقونه».

وقال الزمخشري (٤/ ٥٣١): «﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾[الجمعة:٨]، ولا تجسرون أن تتمنوه؛ خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ﴿مُلَٰقِيكُمْ﴾ لا محالة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ إلى الله؛ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب».

وقال القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٩٦): «قال الزجاج: لا يقال: إن زيدًا فمنطلق، وها هنا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾؛ لما في معنى الذي من الشرط والجزاء؛ أي: إن فررتم منه؛ فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه؛ قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

قلت: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله قوله: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ثم يبتدئ ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾. وقال طرفة:

وكفى بالموت فاعلم واعظًا ... لمن الموت عليه قد قدر
فاذكر الموت وحاذر ذكره ... إن في الموت لذي اللب عبر
كل شي سوف يلقى حتفه ... في مقام أو على ظهر سفر
والمنايا حوله ترصده ... ليس ينجيه من الموت الحذر».

وقال صاحب «أيسر التفاسير» (ص: ٥٠٦٣): «إن الفرار من الموت لا يجديهم نفعًا، وإنه سيلاقيهم حينما يحين أجلهم، لا يصرفه عنهم صارف، وأيام الحياة معدودة، وهي ستنقضي مهما طال أمدها، ثم ترجعون بعد الموت إلى عالم غيب السماوات والأرض، وعالم ما هو مشاهد فيها، فيخبرهم بما كانوا يعملون في الدنيا، وسيجازيهم على أعمالهم».

وقال السعديُّ (ص: ٨٦٣): «﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[الجمعة:٧]؛ أي: من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ

بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٧]؛ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون منه غاية الفرار، فإن ذلك لا ينجيهم؛ بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خيرٍ وشرٍّ، قليلٍ وكثيرٍ».

وأنذَرَ المنافقين بأن فرارهم منه لا يزيد في أعمارهم، ولا يؤخر في آجالهم؛ بل بقاؤهم في الدنيا إلى قَدَر مقدور، وأجل مكتوب؛ كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[الأحزاب:١٦].

ولم يطمع الله بشرًا في الخلود في الأرض، ولو فعل لكان أولى بذلك رسول الله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾[الزُّمَر:٣٠، ٣١][1].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [النحل:٦١].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٥): «﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾[النحل:٦١]، يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[النحل:٦١]، يقول: لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يمتعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم، ساعة من ساعات الزمان ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[النحل:٦١]، يقول: ولا يتقدمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتًا للهلاك».

---

(١) «الثبات على دين الله» (١/ ١٠٤٦).

قال السمعانيُّ في «تفسيره» (٢/ ١٧٩): «﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[النحل:٦١]؛ فإن قيل: لم خَصَّ الساعة، وهم لا يستأخرون دون الساعة، ولا يستقدمون؟ قيل: إنما خصها لأنها أقل الأوقات المعلومة».

وقال ابنُ عطية في «تفسيره» (٢/ ٣٩٥): «وقرأ الحسن ﴿فإذا جاء آجالهم﴾ بالجمع. وهي قراءة ابن سيرين، قال أبو الفتح: هذا هو الأظهر؛ لأن لكل إنسان أجلًا؛ فأما الإفراد فلأنه جنس، وإضافته إلى الجماعة حسنت الإفراد، ومثله قول الشاعر: [الرجز]

في حلقكم عظم وقد شجينا

وقوله: (ساعَةً) لفظ عيّن به الجزء القليل من الزمن، والمراد: جميع أجزائه؛ أي: لا يستأخرون ساعة ولا أقل منها ولا أكثر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠]؛ فإنما هي عبارة يقام الجزء فيها مقام الكل».

وقال صاحب «أيسر التفاسير» (١/ ١٩٦٢): «يخبر الله تعالى العباد بأنه يحلم على العصاة من البشر، مع ظلمهم، وأنه لا يعجل بمؤاخذتهم بأفعالهم، وبما كسبوا، ولو أنه فعل ذلك لأهلك ما على الأرض من مخلوقات، ولم يترك على ظهرها مخلوقًا يدب عليها. ولكنه تعالى يحلم على العصاة، ويستر عليهم عيوبهم وأعمالهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة،وإنما يؤخرهم إلى اليوم المحدد لهم؛ فإذا جاء الأجل لا يمهلون لحظة واحدة».

إذا حضر الأجل فلا رجعة للدنيا

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠]

لا يزال الكافر يجترح السيئات، ولا يبالي بما يأتي وما يذر من الآثام والأوزار، حتى إذا جاءه الموت، وعاين ما هو مقدم عليه من عذاب الله ندم على ما فات، وأسف على ما فرط في جنب الله، وقال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ لأعمل صالحًا فيما قصرت من عبادتك، وحقوق عبادك. إن الكافر يسأل ربه الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحا، ويتدارك ما فرط منه، وليصلح فيما ترك من أهل ومال. ويرد الله تعالى عليه رادعًا وزاجرًا: إنه لا يجيبه إلى طلبه هذا (كلا)؛ فهي كلمة مقولة لا معنى لها، يقولها كل ظالم وقت الضيق والشدة، ولو رُدَّ لعاد إلى ما كان عليه، فقد كان في الحياة، وجاءته الآيات فلم يتعظ بها، ولم يعمل صالحًا، ويقوم وراءهم حاجز (برزخ)، يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، ويبقون كذلك إلى يوم يبعثون وينشرون[1].

﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لمحذوف دل عليه السياق، والتقدير، ولكنَّ كثيرًا من الناس، لا يأخذون حذرهم من الشيطان، ولا يستعيذون بالله منه، فيفسد عليهم دينهم، وينقض ظهورهم بالذنوب والآثام، ثم يظلون هكذا في غفلتهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وانكشف عن عينيه الغطاء، ورأى ما قدم من منكرات ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلى دنياى، ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ ولأصلح من أمرى ما فسد، وأقيم من ديني ما اعوج.. ولكن هيهات.. لقد فات وقت الزَّرْع، وهذا أوانُ الحصاد.. ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ أي: إنها مجرد كلام يُقالُ، لا وزن له، ولا ثمرة

(١) «أيسر التفاسير» لأسعد حومد (١/ ٢٦٥٢).

منه.. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: أنَّ هناك سدًّا قائمًا، فاصلًا بين الأموات، وعالم الأحياء.. فلا سبيل لمن أدركه الموت أن يخترق هذا البرزخ، وينفذ إلى عالم الأحياء مرة أخرى، وذلك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.. حيث يزول البرزخ، وينتقل الناس جميعًا إلى العالم الآخر، ويصبحون جميعًا فى عالم الحق..»[١].

إنه مشهد الاحتضار، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال.. وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار، مشهود كالعيان! فإذا الردُّ على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ كلمةٌ لا معنى لها، ولا مدلولَ وراءها، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها. إنها كلمةُ الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمةٌ تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب من رصيد! وبها ينتهي مشهد الاحتضار. وإذا الحواجز قائمةٌ بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعًا؛ فلقد قضي الأمر، وانقطعت الصلات، وأغلقت الأبواب، وأسدلت الأستار: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.. فلا هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة. إنما هم في ذلك البرزخ بين بين، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢]. **قال الإمام الشافعيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]:

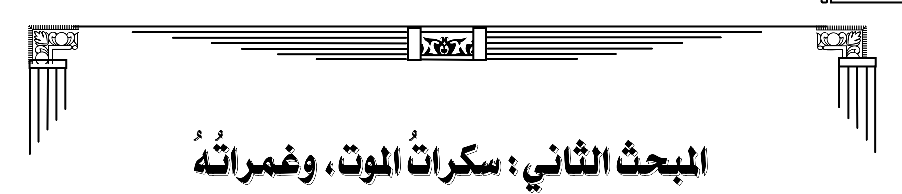
ومَــنْ نزلــت بســاحته المنايــا	**فــلا أرضٌ تَقِيْــه ولا سَــماء**
وأرضُ الله واســعةٌ ولكــن	**إذا نــزل القَضَــا ضــاقَ الفَضــاء**
دَعِ الأيــامَ تَغْــدِرُ[٤] كــلَّ حــين	**فــما يغنــي عــن المــوت الــدَّواء**

(١) «التفسير القرآني للقرآن» (٩/ ١١٧٦).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٤٨٠)، و«الاستعداد للموت» (ص: ٣٤).

(٣) «تراجم شعراء» - موقع أدب - (١٠/ ٢٦٢).

(٤) لو ثبتت هذه الأبيات للشافعي رحمه الله؛ فيحمل الغدر هنا على غدر أهل الزمان؛ كما جنح إلى ذلك بعض أهل العلم. وبعضُهم ضبط الكلمة؛ فقال: «تَعْذِرُ».



المبحث الثاني: سكراتُ الموت، وغمراتُه

للموت سكراتٌ يلاقيها كلُّ إنسانٍ منا حين يحتضر؛ فإذا بك تراه قد تغير لونه، وغارت عيناه ومال عنقه وأنفه، وذهب حسنه وجماله، وخرس لسانه، وصار بين أهله وأصدقائه ينظر ولا يفعل، ويسمع ولا ينطق، يُقلِّب بصره فيمن حوله، من أهله وأولاده، وأحبابه وجيرانه، ينظرون ما يقاسيه من كرب وشده، ولكنهم عن إنقاذه عاجزون، وعلى منعه لا يقدرون.

فيا أيها العاصي الذي قلَّ خوفه من الله، أما تَذْكُرُ ساعةً يَعْرق فيها الجبين، وتخرس من فجأتها الألسن، وتقطر قطراتِ الأسفِ من الأعين؛ فتذَكَّرْ ذلك فالأمر شديد.

واسمع إلى قول ربك: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩].

فجاء الموت بكربه وشدائده.. ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، و«الحق: أنك تموت والله حيٌّ لا يموت.. والحق: أن ترى عند موتك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ ذلك ما كُنْتَ منه تَهْرَبُ.

تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرض، وتحيد إلى الشراب إذا أحسستَ بالظمأ.

ثم ماذا أيها القوي الفَتِيُّ؟! ثم ماذا أيها العبقريُّ الذكيُّ؟!

ثم ماذا أيها الوزير والأمير؟! ثم ماذا أيها الكبير والصغير؟!

ثم ماذا أيها الغني والفقير؟!

ولله در القائل:

كُلُّ باكٍ فسَيُبْكَى وكلُّ ناعٍ فسَيُنْعى
وكلُّ مَذْخُورٍ سيفنى وكلُّ مَذْكُورٍ سَيُنْسَى
ليس غيرُ الله يَبْقَى مَنْ عَلا فالله أَعْلى

ولله درُّ الآخر حين قال:

أيا من يدعي الفهم إلى كم يا أخي الوهم؟
تُتْبِع الذنب بالذنب وتخطي الخطأ الجم؟
أما بان لك العيب؟ أما أنذرك الشيب؟
وما في نصحه ريب ولا سمعك قد صُمَّ
أما نادى بك الموت أما أسمعك الصوت؟
أما تخشى من الفوت فتحتاط وتهتم؟
فكم تسير في السهو وتختالُ من الزَّهْو؟
وتنصب إلى اللهو كأن الموت ما عمَّ؟
أتسعى في هوى النفس وتختال على الفلس
وتنسى ظلمة الرَّمس ولا تذكر ما تمَّ؟
كأني بك تنحط إلى اللحد وتنغط
وقد أسلمك الرهط إلى أضيق مِنْ سَمٍّ؟

هنـــاك الجســـم ممـــدودٌ ليســـــتأكله الـــــدود
إلى أن ينخـــــرَ العـــــودُ ويمســـي العظـــمُ قـــد رَمَّ
فبـــادِرْ أيهـــا المغـــترُّ لمـــا يحلـــو بـــه المـــر
فقـــد كـــاد ينتهـــي العمـــر ومـــا أقلعـــت عـــن ذم؟
وزوِّد نفســـــك الخـــــير ودع مـــا يُعْقِـــبُ الضـــير؟
وهيِّـــئ مَرْكِـــبَ الســـير وخَـــفْ مـــن لجَّـــة الـــيمِّ
بـــذا أوصـــيك يـــا صـــاح وقـــد بحتُـــك مـــن بـــاح
فطـــــوبى لفتًـــــى راح بـــآداب محمـــدٍ يـــأتم[1]

أولًا: تعريف السكرات، والغمرات:

١- السكرات.

السكرات جمع سَكْرة، مأخوذة من الفعل سَكِرَ يَسْكَرُ سُكْرًا.

والسَّكْرَانُ: خلاف الصَّاحي، والسُّكْرُ: نقيض الصَّحْوِ، وقولهم: ذهب بين الصحوة والسكرة، إنما هو بين أن يعقل ولا يعقل.

وسكرة الموت: شدَّتُه، وسكرة الميت غشيتُه التي تدلُّ الإنسانَ على أنه ميِّتٌ[2].

قال الراغبُ الأصفهاني: «السُّكْر: حالةٌ تعرِضُ بين المرء وعقله، وأكثر ما يستعمل في الشراب المسكر، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس،

(١) «أحداث النهاية» (ص: ٤٥) للشيخ محمد حسَّان.
(٢) انظر: «لسان العرب» (٢/ ١٧٠، ١٧١).

والغشي الناشئ عن الألم، وهو المراد هنا»[١].

فالمراد بالسكرات: شدائد الموت وأهوالُه وكُرَبُه التي تصيبُ المحتضر، بسبب نزع الروح.

٢- الغمرات.

الغمرات جمع غَمْرَة، وهي الشدة، وغَمْرةُ كل شيء: مُنْهَمَكه وشدّته، كغمرة الهم والموت ونحوهما.

وأصل الغَمْر: الماء الكثير، يقال: ماء غَمْر، أي: كثيرٌ مُغرِّق بيّن الغُمورة، ومنه قيل للرجل: غَمَرَه القوم يَغْمُرونه إذا علوه شرفًا، وغمرات الموت: سكراته التي تغمر المحتضر؛ أي: تغطي عقله وتستره؛ فيصاب بالغمرة والإغماء[٢].

ثانيًا: الأدلة من الكتاب والسنة على سكرات الموت:

❑ أولا: الأدلة من كتاب الله تعالى:

ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم، سكراتِ الموت وشدائدَهُ في أكثرَ من آيةٍ، منها[٣]:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[الأنعام:٩٣].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٥٣٧): «ولو ترى، يا محمد، حين يغمر الموت

---

(١) انظر: «مفردات القرآن» (ص: ٢٣٦)، و«فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١١/٣٦٢).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (ص٦٧٨). وانظر: «أحوال المحتضر» لمحمد العلي (ص: ٧٥).

(٣) «أحوال المحتضر» (ص: ٧٦).

بسكراته هؤلاء الظالمين... فتعاينهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله، وحان فناء آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم».

وقال البغويُّ في «تفسيره» (٣/ ١٦٩): «﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣] سكراته وهي جمع غمرة، وغمرة كل شيء: معظمه، وأصلها: الشيء الذي يعم الأشياء فيغطيها، ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره».

وقال القرطبي في «تفسيره» (٧/ ٤١): «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾[الأنعام:٩٣]؛ أي: شدائده وسكراته. والغمرة: الشدة، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها. ومنه غمره الماء. ثم وضعت في معنى الشدائد والمكاره. ومنه غمرات الحرب. قال الجوهري: والغمرة: الشدة، والجمع: غمر، مثل: نوبة ونوب.

قال القطامي يصف سفينة نوح ﷺ:

وحان لتالك الغمر انحسار ... وغمرات الموت شدائده».

وقال ابنُ عطية في «تفسيره» (٢/ ٣٢٣): « قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٩٣] الآية، جواب (لَوْ) محذوف، تقديره لرأيتَ عجبًا أَوْ هولًا، ونحو هذا، وحَذْف هذا الجواب أبلغ من نصِّه؛ لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لفظٌ عامٌّ لمن واقعَ ما تقدَّم ذكره، وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر، و«الغمرات» جمع غمرة، وهي المصيبة المبهمة المذهلة، وهي مشبهة بغمرة الماء، ومنه قول الشاعر [بشر بن أبي خازم]:

ولا ينجي من الغمرات إلّا ... براكاء القتال أو الفرار

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٢٦٥): «﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: شدائده وأهواله الفظيعة وكُرَبه الشنيعة لرأيت أمرًا هائلًا وحالةً لا

يقدر الواصفُ أن يصفها».

٢- قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[الأحزاب:١٩].

قال الطبريُّ في «**تفسيره**» **(٢٠/ ١٥٣):** «﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[الأحزاب:١٩]، والمعنى: كَدَوَرَان عينِ الذي يُغْشى عليه من الموت، فلم يذكر الدوران والعين لما وصفت».

وقال السمعاني في «**تفسيره**» **(٤/ ٢٦٨):** «وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[الأحزاب:١٩]، والمغشي عليه من الموت قد ذهب عقله، وشخص بصره، وهو المحتضر الذي قرب من الموت».

وقال البغوي في «**تفسيره**» **(٦/ ٣٣٤):** «﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[الأحزاب:١٩]؛ أي: كدوران الذي يغشى عليه من الموت، وذلك أن من قَرُبَ من الموتِ غشِيَهُ أسبابُهُ يذهبُ عقلُهُ ويشخص بصره، فلا يطرف».

٣- وقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[محمد:٢٠].

٤ - وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩].

قال الطبريُّ في «**تفسيره**» **(٢٢/ ٣٤٦):** «وفي قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[ق:١٩] وجهان من التأويل، أحدهما: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهي: شدته وغلبته على فهم الإنسان، كالسكرة من النوم أو الشراب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من أمر الآخرة؛ فتبينه الإنسانُ حتى تثبَّته وعرَّفه. والثاني: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بحقيقة الموت..

وقد ذكر أنَّ ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود. ولقراءة من قرأ ذلك كذلك من التأويل وجهان:

أحدهما: وجاءت سكرة الله بالموت، فيكون الحق هو الله تعالى ذِكْرُه.

والثاني: أن تكون السكرة هي الموت أضيفت إلى نفسها، كما قيل: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة:٩٥]، ويكون تأويل الكلام: وجاءت السكرة الحق بالموت.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩] يقول: هذه السكرة التي جاءتك أيها الإنسان بالحق هو الشيء الذي كنتَ تهربُ منه، وعنه تروغُ».

وقال ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٤/ ٢٧٢): «﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[ق:١٩] بالبعث؛ أي: يموت ليبعث. قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩] تهرب، قال الحسن: هو الكافر لم يكن شيءٌ أبغضَ إليه من الموت».

وقال السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٢٤٠): «قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[ق:١٩] السكرة هي (الغشية) والغمرة التي تلحق الإنسان عند القرب من الموت.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الحق هو نفس السكرة التي هي سكرة الموت، ويقال: الحق هو الله، وفي الموت لقاء الله؛ فهو معنى قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بلقاء الحق. ويقال: هو إشارة إلى الجنة والنار؛ لأنه إذا مات إما أن يدخل الجنة، وإما أن يدخل النار. وفي الأثر المعروف أن أبا بكر ﷺ لما احتضر كانت عائشة عنده؛ فأنشدت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر ﷺ: لا تقولي هذا، ولكن قولي: «وجاءت سكرة الحق بالموت»[١]. فيقال: إنه زل لسانه، ويقال: هذه قراءته.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩]؛ أي: تفرُّ وتهربُ، ويستحبُّ للمؤمن حبُّ الموت؛ لأنه به يستخلص من الأوزار، ويصل إلى محبوبه إن قدر له خير. وعن بعض السلف: لا يَكْره الموت إلا مريب. وإنما كره تمني الموت بضرٍّ نزل به على ما في الخبر. فأما إذا تمنى الموت ليستخلص من الدنيا وفتنها وشوقًا إلى لقاء ربه؛ فهو محبوب».

وقال البغويُّ في «تفسيره» (٤/ ٢٧٣): «﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بحقيقة الموت، وقيل: بالحق من أمر الآخرة، حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعيان. وقيل: بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة. ويقال: لمن جاءته سكرة الموت، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، تميل؛ قال الحسن: تهرب. قال ابن عباس: تكره، وأصل الحيد: الميل، يقال: حدت عن الشيء أحيد حيدًا ومحيدًا إذا ملْتُ عنه».

وقال الزمخشري في «تفسيره» (٤/ ٣٨٥): «لما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هُمْ لا قُوهُ عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي، وهو قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ ، وسَكْرةُ الموتِ: شدَّتُه الذاهبةُ بالعقل. والباء في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتعدية، يعني: وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجلية الحال: من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: الحق الذي خلق له الإنسان، من

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/٣٤٦).

أن كل نفس ذائقة الموت. ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾؛ أي: وجاءت ملتبسةً بالحق؛ أي: بحقيقة الأمر.

أو: بالحكمةِ والغرَضِ الصحيح؛ كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضي الله عنهما: سكرة الحق بالموت، على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له، وأنها حكمة، والباء للتعدية، لأنها سبب زهوق الروح لشدتها، أو لأنّ الموت يعقبها، فكأنها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى: جاءت ومعها الموت. وقيل: سكرة الحق سكرة الله، أضيفت إليه تفظيعًا لشأنها وتهويلًا. وقرئ: سكرات الموت؛ ذلِكَ إشارة إلى الموت، والخطاب للإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ على طريق الالتفات. أو إلى الحق، والخطاب للفاجر ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب».

وقال القرطبيُّ في «تفسيره» (١٧/ ١٢): «﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[ق:١٩]؛ أي: غمرته وشدته؛ فالإنسان ما دام حيًّا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده. وقيل: الحق هو الموت سمي حقًّا؛ إما لاستحقاقه، وإما لانتقاله إلى دار الحق؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما؛ لأن السكرة هي الحق؛ فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين. وقيل: يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي: جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحق هو الموت، والمعنى: وجاءت سكرة الموت بالموت، ذكره المهدوي... ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾؛ أي: يقال لمن جاءته سكرة الموت: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ﴾ تفرُّ منه، وتميل عنه. يقال: حاد عن الشيء يحيد حيودًا وحيدة وحيدودة، مال عنه وعدل. وأصله: حيدودة بتحريك الياء فسكنت، لأنه ليس في الكلام فعلول غير

صعفوق. وتقول في الإخبار عن نفسك: حدت عن الشيء أحيد حيدًا ومحيدًا إذا ملت عنه، قال طرفة:

أبا منذر رمت الوفاء فهبته وحدت كما حاد البعير عن الدحض».

وقال ابنُ كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٩٩): «وقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩]، يقول تعالى: وجاءت -أيها الإنسان- ﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنتَ تمتري فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩]؛ أي: هذا هو الذي كنتَ تفرُّ منه قد جاءك؛ فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩]؛ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان مِنْ حيثُ هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك....

وقد ثبتَ في **«الصحيح»**[١] عن النبي ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ»**. وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩] قولان:

أحدهما: أن «مَا» هاهنا موصولة؛ أي: الذي كنت منه تحيد - بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر- قد حل بك، ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن «مَا» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه، ولا الحيد عنه».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٨٠٥): «أي: ﴿وَجَآءَتۡ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[ق:١٩] الذي لا مردَّ له ولا مناص،

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق:١٩] أي: تتأخر وتنكص عنه».

٥ - قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة:٨٣-٨٥].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٣/ ١٥٦): «وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة:٨٣] يقول تعالى ذِكْرُه: فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجسادكم أيها الناس حلاقيمَكُم ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾[الواقعة:٨٤] يقول: ومن حضرهم منكم من أهليهم حينئذٍ إليهم ينظر، وخرج الخطاب ها هنا عامًّا للجميع، والمراد به: من حضر الميت من أهله وغيرهم، وذلك معروف من كلام العرب، وهو أن يخاطب الجماعة بالفعل، كأنهم أهله وأصحابه، والمراد به بعضهم، غائبًا كان أو شاهدًا، فيقول: قتلتم فلانًا، والقاتل منهم واحدٌ، إما غائب، وإما شاهد. وقد بيَّنا نظائر ذلك في مواضع كثيرة من كتابنا هذا.

يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[الواقعة:٨٥] يقول: ورسلُنا الذين يقبضُون روحَهُ أقربُ إليه منكم، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة:٨٥].

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: قيل ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾[الواقعة:٨٣-٨٥] كأنه قد سمع منهم، والله أعلم: إنا نقدر على أن لا نموت؛ فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة:٨٣]، ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[الواقعة:٨٦]؛ أي: غير مجزيين ترجعون تلك النفوس وأنتم ترون كيف تخرج عند ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنكم تمتنعون من الموت».

وقال ابنُ كثير في «تفسيره» (٧/ ٥٤٧): «يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾؛ أي: الروح ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار؛ كما قال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ

يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾[القيامة:٢٦-٣٠]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾[الواقعة:٨٤]؛ أي: إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت».

وقال في «تفسير الثعالبي» (٥/ ٣٧٢): «وقوله سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ يعني: بلغت نفسُ الإنسان، و﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾: مجرى الطعام، وهذه الحال هي نزع المرء للموت.

وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ﴾ إشارة إلى جميع البشر ﴿حِينَئِذٖ﴾؛ أي: وقتَ النزع ﴿تَنظُرُونَ﴾: إليه، وقال الثعلبيُّ: ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾[الواقعة:٨٤] إلى أمري وسلطاني، يعني: تصريفه سبحانه في الميت، انتهى، والأَوَّلُ عندي أحسن، وعزاه الثعلبيُّ لابن عبّاس».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٨٣٦): «أي: فهلَّا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنَّا نحنُ أقربُ إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون».

٦ - قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾[القيامة:٢٦-٣٠].

قال السمعاني في «تفسيره» (٦/ ١٠٨): «قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ المعنى: أنه ليس الأمر كما يظنون ويتوهمون، (ويستعملون) ذلك إذا بلغت النفس التراقي. والتراقي جمع ترقوة، وقوله: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي: هل من طبيب يشفي ويداوي، قاله قتادة.

وقيل: معناه: إن الملائكة يقولون من يرقى بروحه؛ أي: تصعد ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب».

وقال البغوي في «تفسيره»(٨/ ٢٨٥): «﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ يعني النفس، كناية عن غير مذكور ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ فحشرج بها عند الموت، و﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ جمع الترقوة، وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت. ﴿وَقِيلَ﴾؛ أي: قال من حضره الموت هل ﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾ هل من طبيب يرقيه ويداويه فيشفيه برقيته أو دوائه؟.

وقال قتادة: التمسوا له الأطباء؛ فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئًا.

وقال سليمان التيمي، ومقاتل بن سليمان: هذا من قول الملائكة، يقول بعضهم لبعض: من يرقى بروحه؟ فتصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن الذين بلغت روحه التراقي ﴿أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ من الدنيا.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ قال قتادة: الشدة بالشدة. وقال عطاء: شدة الموت بشدة الآخرة. وقال سعيد بن جبير: تتابعت عليه الشدائد، وقال السُّديُّ: لا يخرج من كربٍ إلا جاءه أشدُّ منه.

قال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة، فكان في آخر يومٍ من الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة.

وقال مجاهد: اجتمع فيه الحياة والموت.

وقال الضحاك: الناس يجهِّزون جسده، والملائكة يجهِّزون روحه.

وقال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن. وقال الشعبي: هما ساقاه عند الموت. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي مرجع العباد يومئذ إلى الله يساقون إليه».

وقال القرطبيُّ في «تفسيره» (١٩/ ١١١): «قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجرٌ، أي: بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾؛ أي: بلغت النفس أو الروح التراقي، فأخبر عما لم يجر له ذكر، لعلم

المخاطب به، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[الواقعة:٨٣]، وقد تقدم، وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ معناه: حقًا؛ أي: حقًّا أن المساق إلى الله ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾؛ أي: إذا ارتقت النفس إلى التراقي. وكان ابن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمع ترقوة، وهي: العظام المكتنفة لنقرة النحر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر، موضع الحشرجة؛ قال دريد بن الصمة:

ورب عظيمة دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود: تذكيرهُم شدَة الحالِ عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٍ﴾، اختلف فيه؛ فقيل: هو من الرقية.. عن عكرمة قال: من راق يرقي: أي يشفي. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس: أي هل من طبيب يشفيه، وقال الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واق ... أم هل له من حمام الموت من راق

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس؛ أي: من يقدر أن يرقي من الموت. وعن ابن عباس - أيضًا - وأبي الجوزاء أنه من رقي يرقى: إذا صعد، والمعنى: من يرقى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن ملك الموت يقول: من راق؟ أي: مَنْ يرقى بهذه النفس، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها، فيقول ملك الموت: يا فلان اصعد بها. وأظهر عاصم وقوم النون في قوله تعالى: ﴿مَنۡۜ رَاقٍ﴾.

واللام في قوله: ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾ لئلا يشبه مراق، وهو بائع المرقة، وبران في تثنية البر. والصحيح: ترك الإظهار، وكسرة القاف في ﴿مَنۡۜ رَاقٍ﴾، وفتحة النون في

﴿بَلْۜ رَانَ﴾ تكفي في زوال اللبس. وأمثل مما ذكر: قصد الوقف على ﴿مَنْۜ﴾ و﴿بَلْۜ﴾، فأظهرهما، قاله القشيري. قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ﴾؛ أي: أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾؛ أي: فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة؛ قال الشاعر:

فــــراق لــــيس يشــــبهه فــــراق ... قــد انقطــع الرجــاء عــن الــتلاق

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾؛ أي: فاتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى التفت سَاقَا الإنسانِ عند الموت من شدة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال سعيد بن المسيب والحسن أيضًا: هما سَاقَا الإنسان إذا التفَّتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضًا: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوالًا. قال النحاس: القول الأول أحسنها. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ قال: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله؛ أي: شدة كرب الموت بشدة هول المطلع، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ وقال مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. وقال الضحاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن، والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق. قال الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق».

وقال ابنُ كثيرٍ في «تفسيره» (٨/ ٢٨١) بتصرفٍ: «يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال -ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت-؛ فقال تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ إن جعلنا ﴿كَلَّآ﴾ رداعة؛ فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به؛ بل صار ذلك عندك عيانًا. وإن جعلناها بمعنى (حقًّا) فظاهر، أي: حقًّا إذا بلغت التراقي؛ أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق؛ كقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الواقعة:٨٣-٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، والتراقي: جمع ترقوة، وهي قريبة من الحلقوم.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ قال ابن عباس: أي من راق يرقي؟ ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: من طبيب شاف.

وعن ابن عباس: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ قال: قيل: من يَرقَى بروحه: ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ قال: التفت عليه الدنيا والآخرة. وفي روايةٍ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ يقول: آخر يوم في الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله.

وقال عكرمة: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء ببلاء. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ هما ساقاك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليها جوالًا.

وفي رواية عن الحسن: هو لفهما في الكفن.

وقال الضحاك: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله ﷻ: ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. كما ورد في حديث البراء الطويل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام:٦١، ٦٢]».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٩٠٠): «يعظ تعالى عباده بذكر حال المحتضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: من يرقيه من الرقية؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية؛ فلم يبق إلا الأسباب الإلهية. ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مردَّ له، ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ للدنيا. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظُم الأمرُ، وصعُب الكربُ، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.

فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها. ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمرا على بغيه وكفره وعناده».

وقال القاسميُّ في «تفسيره» (٩/ ٣٦٨): «﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[القيامة:٢٦]؛ أي: بلغت النفس أعالي الصدر. وإضمارها، وإن لم يجر لها ذكر، لدلالة السياق عليها».

٧ - قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾[النازعات:١، ٢].

قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٩٣): «قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ فيه سبعة أقوال:

أحدها: أنها الملائكة تَنْزِعُ أرْواح الكفَّار، قاله علي، وابن مسعود، وروى عطية عن ابن عباس قال: هي الملائكة تَنْزِع نفوسَ بني آدم، وبه قال مسروق.

والثاني: أنه الموت يَنْزِع النفوسَ، قاله مجاهد.

والثالث: أنها النفس حين تُنْزَعُ، قاله السدي.

والرابع: أنها النجوم تَنْزِع من أُفُق إلى أُفُق تطلع ثم تغيب، قاله الحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، والأخفش، وابن كيسان.

والخامس: أنها القِسِيّ تَنْزِع بالسَّهم، قاله عطاء وعكرمة.

والسادس: أنها الوحوش تنزع وتنفر، حكاه الماوردي.

والسابع: أنها الرّماة، حكاه الثّعلبيّ.

وقوله ﷻ: ﴿غَرۡقٗا﴾ اسم أقيم مقام الإغراق. قال ابن قتيبة: والمعنى: والنازعات إغراقًا، كما يغرق النازع في القوس، يعني: أنه يبلغ به غاية المد..

قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الملائكة. ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: أنها حين تنشط أرواح الكفار حتى تخرجها بالكرب والغمّ، قاله عليّ عليه السلام.

قال مقاتل: ينزع ملك الموت روح الكافر، فإذا بلغت ترقوته غرقها في حلقه، فيعذِّبه في حياته، ثم ينشطها من حلقه - أي: يجذبها - كما ينشط السفّود من الصوف المبتل. والثاني: أنها تنشط. أرواح المؤمنين بسرعة كما ينشط العقال من يد

البعير إذا حل عنها، قاله ابن عباس. وقال الفراء: الذي سمعته من العرب: كأنما أُنْشِط من عِقَال، بألف. تقول: إذا ربطت الحبل في يد البعير: نشطته، فإذا حللته قلت: أنشطته.

والقول الثاني: أنها أنفس المؤمنين تنشط عند الموت للخروج، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضًا.

وبيانه: أن المؤمن يرى منزله من الجنة قبل الموت فتنشط نفسه لذلك.

والثالث: أن الناشطات: الموت ينشط نفس الإنسان، قاله مجاهد.

والرابع: النجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب، قاله قتادة، وأبو عبيدة، والأخفش. ويقال لبقر الوحش: نواشط، لأنها تذهب من موضع إلى موضع. قال أبو عبيدة: والهموم تنشط بصاحبها. قال هميان بن قحافة:

أَمْسَتْ همومي تَنْشِط المَنَاشِطَا الشَّامَ بي طَوْرًا وطَوْرًا وَاسِطَا

والخامس: أنها النفس حين تنشط بالموت، قاله السُّديّ».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٩٠٨): «هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده؛ فقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها. ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ وهم الملائكة أيضًا، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النزع يكون لأرواح المؤمنين، والنشط لأرواح الكفار».

ثانيا: الأدلة من السنة.

ثبتت أحاديث عن الرسول ﷺ تدل على أن للموت سكرات، ومن ذلك:

١- ما أخرجه البخاريُّ بسنده عن أبي عمرو ذكوان، مولى عائشة، أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَقُولُ: إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: **«أَنْ نَعَمْ»** فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: **«أَنْ نَعَمْ»** فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ - يَشُكُّ عُمَرُ - فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: **«لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ»** ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: **«فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»** حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ[١].

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: **«لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ»**، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ، مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ[٢].

٣ - ما أخرجه البخاريُّ بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٤٤٩)، ومسلمٌ (٢٤٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٤٦٢).

قال ابنُ حجر في «فتح الباري»(٨/ ١٤٩): «المراد بالكرب ما كان يجده من شدة الموت، وكان فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر».

لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي، فَلاَ أَكْرَهُ شِدَّةَ المَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا، بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»[١].

قال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٦٣): «في الحديث: أن شدة الموت لا تدل على نقصٍ في المرتبة؛ بل هي للمؤمن، إما زيادة في حسناته، وإما تكفير لسيئاته».

وقال الإتيوبي في «ذخيرة العقبى» (١٨/ ٢٣٣): «(فَلَا أَكْرَهُ شِدَةَ المَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا)؛ أي: لأنه سبب لتكفير الذنوب، ومضاعفة الأجر، وليس عقابًا، حيث إن رسول الله ﷺ اشتدّ عليه، وهو محض مضاعفة الأجر له؛ فقد أخرج أبو يعلى من حديث أبي سعيد: «إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ، كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ».

وفي «صحيح البخاريّ» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: **«أَجَلْ...»** الحديث.

وأخرج الدارميُّ، والنسائي في «الكبرى»، وابن ماجه، وصححه الترمذيُّ، وابن حبَّان، والحاكم، كلهم من طريق عاصم بن بَهْدَلَة، عن مصعب بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ...» الحديث، وفيه: «حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الأَرْضِ، وما عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

٤ - ما رواه الترمذي بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[٢].

(١) رواه البخاريُّ (٤٤٦٢).

(٢) رواه الترمذيُّ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في التشديد عند الموت (ح٩٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٥٠٢) (ح٩٧٩).

قال صاحب «تحفة الأحوذي» (٤/ ٤٨): «قوله (مَا أَغْبِطَ) بكسر الباء، يقال: غبطت الرجل أغبطه إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ماله، وأن يدوم عليه ما هو فيه؛ أي: ما أحسد (أحدًا)، ولا أتمنى ولا أفرح لأحد (بِهَوْن موتٍ) الهون بالفتح الرفق واللين أي بسهولة موت والإضافة فيه إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: لما رأيت شدة وفاته علمت أن ذلك ليس من المنذرات الدالة على سوء عاقبة المتوفى وأن هون الموت وسهولته ليس من المكرمات، وإلا لكان ﷺ أولى الناس به؛ فلا أكره شدة الموت لأحد ولا أغبط أحدًا يموت من غير شدة».

وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٦٥): «المستريح والمستراح منه كلٌّ منهما يجوز أن يشدد عليه عند الموت وأن يخفف، والأول هو الذي يحصل له سكرات الموت، ولا يتعلق ذلك بتقواه ولا بفجوره؛ بل إن كان من أهل التقوى ازداد ثوابًا، وإلا فيكفر عنه بقدر ذلك، ثم يستريح من أذى الدنيا الذي هذا خاتمته، ويؤيد ذلك ما تقدم من كلام عائشة في الحديث الأول، وقد قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يُهون علي سكرات الموت، إنه لآخر ما يكفر به عن المؤمن، ومع ذلك؛ فالذي يحصل للمؤمن من البشرى ومسرة الملائكة بلقائه ورفقهم به وفرحه بلقاء ربه يهون عليه كل ما يحصل له من ألم الموت حتى يصير، كأنه لا يحس بشيء من ذلك».

قال أبو حامد الغزالي(١): «اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كربٌ ولا هولٌ ولا عذابٌ سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده...، واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها؛ فإنما يعرفها، إما

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٦١).

بالقياس إلى الآلام التي أدركها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النَّزع على شدة ما هم فيه.

فأما القياس: الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم؛ فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو، جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح، فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم، يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم؛ فإن كان من الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره؛ فما أعظم ذلك الألم وما أشده، والنَّزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلَّا وقد حل به الألم...، فألم النَّزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه؛ فإنه المنْزوع المجذوب من كل عرق من العروق، وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء، ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من العرق إلى القدم،... فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا؛ فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم، لا من عرق واحد؛ بل من جميع العروق، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا، فتبرد أولًا قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها»[1].

ثالثًا: سكرات الموت تحصل لكل المخلوقات:

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «إن قال قائل: كل المخلوقات تجد هذه السكرات؟

قيل له: قال بعض العلماء قد وجب بحكم القول الصدق، والكلمة الحق، أن

(١) كتاب «الموت» (ص:٦٥- ٦٧)، ونقله ابن الجوزي في «الثبات عند الممات» (ص٦١- ٦٣).

الكأس مر المذاق، وإن قد ذيق ويذاق ولكن ثم فريقان، وتقديرات وأوزان، وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما انفرد بالبقاء وحده لا شريك له وأجرى سنة الهلاك والفناء على الخلق دونه، خالف في ذلك جَلَّ جلالُه بين المخلوقات، وفرق بين المحسوسات، بحسب ما خالف بين المنازل والدرجات، فنوع أرضي حيواني..إنساني وغير إنساني، وفوقه عالم روحاني، وملأ علواني رضواني، كلٌّ يشربُ من ذلك الكأس جرعتَهُ، ويغتصُّ منه غصتَهُ؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾[آل عمران:١٨٥].

قال أبو حامد في كتاب «الكشف علوم الآخرة»: «وثبت ذلك في ثلاثة مواضع من كتابه، وإنما أراد سبحانه بالموتات الثلاث للعالمين: فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت؛ فالأول: آدم وذرتيه وجميع الحيوان على ضروبه، والملكوتي - وهو الثاني -: أصناف الملائكة والجن، وأهل الجبروت هم المصطفون من الملائكة»[١].

فالعبدُ المؤمن تخرُج روحُه بسهولةٍ ويسرٍ، ودليلُ ذلك: ما ورد في حديث البراء ابن عازب أنَّ الرسولَ ﷺ قال عن وفاةِ المؤمن: «**ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ**»، وفي رواية: «**الْمُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا...**»[٢].

وأما الكافر؛ فإن روحه تخرج بشدة وصعوبة يتعذب بها؛ لقوله ﷺ في حديثه عن وفاة الكافر، وفي روايةٍ الفاجر: «**ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الكثير الشعب مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فتقطَّع مَعَهَا**

(١) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص: ١٦٢).
(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٠/ ٥٠٣)، والطيالسي (٧٥٣)، وأبو داود (٣٢١٢).

العُروقُ والعَصَبُ».

هذا بالجملة، وإلَّا فإنه قد تشتدُّ السكرات على بعض الصالحين؛ لتكفير ذنوبهم، ولرفع درجاتهم؛ كما حصل للرسول ﷺ حيث عانى من شدة سكرات الموت.

قال ابنُ حجر: «وفي الحديث: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٌ**»، أنَّ شدة الموت لا تدل على نقصٍ في المرتبة؛ بل هي للمؤمن، إما زيادة في حسناته، وإما تكفير لسيئاته»[(١)].

وقد ترجم ابنُ ماجه في سننه بعنوان: (باب ما جاء في المؤمن يؤجر في النزع)، وساق تحته قوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يَمُوتُ بِعَرَقِ الْجَبِينِ**»[(٢)].

كما قد جاء في حديث آخر قوله ﷺ: «**الشَّهِيدُ لا يَجِدُ أَلَمَ الْقَتْلِ، إلا كَمَا يَجِدُ أحدكم أَلَم مس الْقَرْصَةِ**»[(٣)].

وهذا يدلُّ على أن الأصل تخفيفُ نزع روح المؤمن، إلا أنها قد تشدد على من أراد الله ﷻ من المؤمنين؛ تكفيرا لسيئاتهم، أو رفعا لدرجاتهم؛ **قال القرطبيُّ في معرض حديثه عن سكرات الموت:** «قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء، فما لنا عن ذكره مشغولين؟ وعن الاستعداد له متخلفين؟ قالوا: وما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من شدائد الموت وسكراته؛ فله فائدتان:

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٦٣).

(٢) رواه ابن ماجه (١١٩٧)، وحسَّنه ابنُ حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٢/ ١٨٣)؛ كما قال ذلك في المقدمة، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٧٨). بلفظ: «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة». قال الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»: «حسن صحيح».

أحدهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن، وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى، فلا يرى عليه حركة ولا قلقًا، ويرى سهولة خروج روحه، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذُكر الأنبياء الصادقون في خبرهم شدةُ ألمه مع كرامتهم على الله تعالى، وتهوينه على بعضهم قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميت مطلقًا لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار...

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء أحبابُ الله وأنبياؤه ورسلهُ؛ فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادرٌ أن يخفف عنهم أجمعين. فالجواب: أن «**أَشَدّ النَّاسِ بَلَاءً فِي الدُّنْيَا الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**»[1]؛ كما قال نبيُّنا عليه السلام... فأحب الله أن يبتليهم؛ تكميلًا لفضائلهم لديه، ورفعةً لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقهم نقصًا ولا عذابًا؛ بل هو.. كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يجري الله عليهم، فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم؛ ليرفع منازلهم، ويعظم أجورهم قبل موتهم؛ كما ابتلَى إبراهيمَ بالنار، وموسى بالخوف والأسفار، وعيسى بالصحارى والقفار، ونبينا محمدًا ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كلُّ ذلك لرفعة في أحوالهم، وكمال في درجاتهم.

ولا يفهم من هذا أن الله شدَّد عليهم أكثر مما شدَّد على العصاة المخلطين؛ فإن

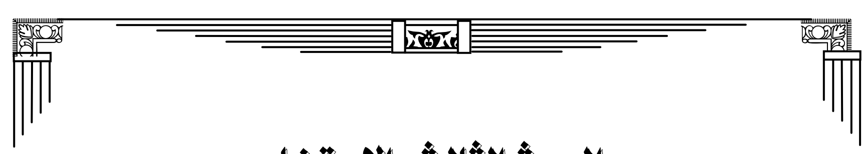
(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١/ ١٧٢) (١٤٨١)، و(١/ ١٨٠) (١٥٥٥)، والحاكم (١/ ٩٩) من حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، بلفظ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ حَتَّى يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حسب دِينِهِ...**». قال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط الشيخين»، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١١٦): «له شاهد»، وصححه الزرقاني في «مختصر المقاصد» (١٠٢) ، وقال أحمد شاكر في «مسند أحمد» (٣/ ٥٢): «إسناده صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

ذلك عقوبةٌ لهم، ومؤاخذةٌ على إجرامهم؛ فلا نسبة بينه وبين هذا»[(١)].

فشدة السكرات تخفف من الذنوب، وكل ما يصيب الإنسان من مرضٍ أو شدةٍ أو همٍّ أو غمٍّ حتى الشوكة تصيبه؛ فإنها كفارةٌ لذنوبه، ثم إن صبر واحتسب كان له مع التكفير أجر ذلك الصبر الذي قابل به هذه المصيبة التي لحقت به، ولا فرق في ذلك بين ما يكون عند الموت، وما يكون قبله، فالمصائبُ كفاراتٌ لذنوب المؤمن، وقد أخبر الرسول ﷺ بأنه: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ إِلاَّ حَطَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»**، وكذلك قوله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»** وقوله ﷺ: **«مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمُّ يَهُمُّهُ، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ سيئاته»**، وفي رواية قال ﷺ: **«مَا يُصِيبُ المسلم مِنْ نَصَبٍ ، وَلاَ وصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ ، وَلاَ حَزَنٍ ، وَلاَ أَذًى ، وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ مِنْ خَطَايَاهُ»**.

---

(١) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (١/ ٤٨ - ٥٠).



المبحث الثالث: الاحتضار

وهو ساعةُ كلِّ إنسان بخصوصه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ في الحديث: «...**إِنْ يَعِشْ هَذَا فَلَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**»[١].

أولًا: تعريف الاحتضار:

❁ **الحضور**: نقيض المغيب والغيبة، يقال: حَضَر الرجل يَحْضُرُ حُضُورًا وحِضَارة، وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون:٩٨]؛ أي: أعوذ بك من حضور الشياطين في شيء من أمري.

فالاحتضار هو حضورُ الموت ونزولُه بالعبد[٢].

ثانيًا: حضُور ملك الموت.

إذا حان الأجل، وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسلِّ الروح المدبِّرة للجسد والمحركة له، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١]، فيأتي ملك الموت؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[السجدة:١١].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٠/ ١٧٥): «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[السجدة:١١]، يقول: يستوفي عددكم بقبض

---

(١) رواه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) «أحوال المحتضر» (ص: ٧١).

أرواحكم ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم، ومنه قول الراجز:

إن بنـــي الأدرم ليســـوا مـــن أحـــد   ولا توفـــاهم قـــريش في العـــدد

وعن قتادة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة:١١] قال: ملك الموت يتوفاكم، ومعه أعوان من الملائكة».

وقال البغويُّ في «تفسيره» (٦/ ٣٠٢): «﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبض أرواحكم، ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ أي: وُكِّل بقبض أرواحكم، والتوفي استيفاء العدد، معناه: أنه يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحدٌ من العدد الذي كتب عليه الموت. وروي أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة، فهو يقبض أنفس الخلق في مشارق الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب».

فيأتي للمؤمن وكذلك الكافر والمنافق، في صور على حسب أعمالهم، وسيأتي الكلام عليه في موضعه.

ففي حديث البراء بن عازب ﵁ أن الرسول ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ﵇، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ** - وفي رواية: **الْمُطْمَئِنَّةُ - اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ** - وفي رواية: **الفاجر - إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ - غلاظ شداد - سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ - من النار - فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ**

فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ - الكثير الشعب - مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، - فتقطَّع مَعَها العُروقُ والعَصَبُ-»[١].

ثالثًا: حضور الملائكة مع ملك الموت:

إذا حان أجل العبد، وأرادَ اللهُ تعالى قبضَ روحهِ أرسل إليه ملك الموت ومعه ملائكة يعاونونه على قبض روح ذلك العبد؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].

فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: احتضر وحان أجله، توفتهُ رسلُنا، أي: ملائكة موكَّلون بذلك، وقد رُوي: أن لملك الموت أعوانًا من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم[٢].

يقول الطبريُّ: «يقول تعالى ذِكْرُه: إن ربكم يحفظكم... إلى أن يحضركم الموت، وينزل بكم أمر الله، وإذا جاء ذلك أحدكم توفاه أملاكنا الموكلون بقبض الأرواح ورسلنا المرسلون به، وهم لا يفرطون في ذلك، فيضيعونه؛ فإن قال قائل: أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت؟ فكيف قيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ والرُّسُلُ جملةٌ، وهو واحدٌ؟ أو ليس قد قال: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة:١١]؟ قيل: جائز أن يكون الله تعالى أعان ملك الموت بأعوان من عنده؛ فيتولون ذلك بأمر ملك الموت؛ فيكون التوفي مضافًا، وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت؛ إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قتل من قتل أعوان السلطان، وجلد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان، وإن لم يكن

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد (٣٠/ ٥٠٣)، والطيالسي (٧٥٣)، وأبو داود (٣٢١٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦٧).

السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وَلِيَهُ بيده»[(١)].

فالمتأمل في نصوص القرآن الكريم يدرك أن الله ﷻ أسند التوفي للملائكة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[النحل:٢٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[النحل:٣٢]، وقوله: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾، وغيرها من الآيات، وأسنده في آيةٍ أخرى لملك الموت؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[السجدة:١١].

وأسنده سبحانه في آية أخرى إليه جَلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾[الزُّمَر:٤٢]، ولا معارضة بين الآيات المذكورة، فإسناد التوفِّي إليه ﷻ؛ لأنه لا يموت أحد إلا بمشيئته وإذنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾[آل عمران:١٤٥]، وإسناده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وإسناده للملائكة؛ لأن لملك الموت أعوانًا من الملائكة ينزعون الروح من الجسد إلى الحلقوم؛ فيأخذها ملك الموت[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام:٦١، ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[الأنفال:٥٠]،

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[النحل:

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٠٩ – ٤١٠).

(٢) انظر: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٣/ ٢٦٧)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص: ٢٣٦).

٢٨- ٣٢] وغيرها من الآيات.

وقد جاء في الأحاديث أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله، إن كان محسنًا؟ ففي أحسن هيئة، وأجمل صورة، بأعظم بشارة، وإن كان مسيئًا؛ ففي أشنع هيئة، وأفظع منظر، بأغلظِ وعيدٍ، ثم يسوقون الرُّوح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها في يده؛ بل يضعونها في أكفان وحنوط يليق بها، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الواقعة:٨٣- ٨٧].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ** - وفي رواية: **الْمُطْمَئِنَّةُ - اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ** - وفي رواية: **الفاجر - إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ - غلاظ شداد - سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ - من النار - فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ - الكثير الشعب - مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، - فتقطَّع مَعَها العُروقُ والعَصَبُ-**»(١).

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٠/ ٥٠٣)، والطيالسي (٧٥٣)، وأبو داود (٣٢١٢).

رابعًا: حضور الشيطان عند الموت:

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصًا على الإنسان حتى لا يفلت منه؛ ففي «صحيح» مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى، ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ**»(١).

وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمه أو غيرهم ممن هو شفيقٌ عليه، ناصح له، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام؛ فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة(٢)، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران:٨].

وقد حدَّث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: «حضرتُ وفاة أبي أحمد، وبيدي خرقةٌ لأشُدَّ لَحْيَيه، فكان يغرقُ، ثم يفيقُ، ويقول بيده: لا بَعْدُ، لا بَعْدُ، فعل هذا مرارًا، فقلت له: يا أبت أيُّ شيءٍ يبدو منك؟ قال: إنَّ الشيطان قائمٌ بحذائي عاضٌّ على أنامله، يقول: يا أحمد فُتَّنِي، وأنا أقولُ: لا بَعْدُ، لا بَعْدُ، حتى أموت»(٣).

وقال القرطبي: سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي، يقول: «حضرتُ أخا شيخِنَا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة، وقد احتضر؛ فقيل له: لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق، ذكرنا له ذلك،

(١) رواه مسلم (٢٠٣٣).
(٢) انظر: «التذكرة» (ص: ٣٣).
(٣) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ٤٩٩).

فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مُتْ يهوديًّا؛ فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مُتْ نصرانيًّا؛ فإنه خير الأديان؛ فكنت أقول لهما: لا، لا...»[(١)].

وقد استدل بعضُ العلماء بهذا الحديث - حديث جابر بن عبد الله - على حضور الشيطان عند المحتضر؛ لإغوائه وافتتانه، كما استدلوا أيضًا بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»**[(٢)].

قال ابن دقيق العيد ت ٧٠٢هـ: «فتنةُ المَحْيَا: ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات، وأعظمها - والعياذ بالله - أمر الخاتمة عند الموت، وفتنة الممات: يجوز أن يراد بها: الفتنة عند الموت، أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر»[(٣)].

كما قد استدلَّ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية بحديث الاستعاذة من فتنة المحيا والممات على حضور الشيطان عند المحتضر لإغوائه، وأنه قد يعرض الأديان على بعض العباد؛ حيث قال رحمه الله: «أما عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمرًا عامًّا لكل أحد، ولا هو أيضًا منتفيًا عن كل أحد، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا، منها ما في الحديث الصحيح: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ**

(١) انظر: «التذكرة» (ص: ٣٣)، و«القيامة الصغرى» لعمر بن سليمان الأشقر (ص: ٢٩).
(٢) رواه البخاريُّ (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).
(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٣١٩).

بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»(١).

ولكن وقت الموت أحرص ما يكون الشيطان على إغواء بني آدم؛ لأنه وقت الحاجة، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا**»(٢) وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبد لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»(٣).

وقال في موضع آخر: «وأما عرض الأديان وقت الموت، فيُبْتَلى به بعضُ الناس دون بعض...»(٤).

وذكر ابن حجر أن الأكثر والأغلب في سوء الخاتمة أنه لا يقع إلا لمن في طويته فسادٌ أو ارتيابٌ، ويكثر وقوعهُ للمُصِرِّ على الكبائر، والمجترئ على العظائم؛ إذ يهجم عليه الموتُ بغتةً، فيصطلمه(٥) الشيطان عند تلك الصدمة؛ فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته(٦).

ويدلُّ على حضور الشيطان عند المحتضر؛ قولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون:٩٧، ٩٨]؛ فالمعنى: أعوذ بك

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٤/ ٢٠٢).
(٥) **الاصطلام:** الاستئصال والهلاك والقطع. انظر: «لسان العرب» (٢/ ٤٦٩).
(٦) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٨٩، ٤٩٠).

أن يحضرني الشيطانُ في أمر من أموري كائنًا ما كان، سواء كان ذلك وقتَ تلاوة القرآن، أو عندَ حضورِ الموت، أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات[(١)].

وتحدث أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسيُّ عن حضور الشيطان عند المحتضر تحت عنوان: (الفصل الثاني والعشرون في اجتهاد الشيطان على المؤمن عند الموت)، واستشهد بما رواه النسائي وأبو داود بسنديهما عن أبي اليسر قال: كان رسول الله ﷺ يقول «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرَدِّي ، وَالْهَدْمِ، وَالْغَرَقِ، وَالْحَرِيقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أموت فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا، وَأَعُوذُ بِكَ وَأَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا**»[(٢)].

فقوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ**»؛ قال الخطابيُّ ت٣٨٨هـ في شرحه: «هو أن يستولي عليه عند مفارقة الدنيا، فيضله، ويحول بينه وبين التوبة، أو يعوقه عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قبله، أو يؤيسه من رحمة الله، أو يكره له الموت ويؤسفه على حياة الدنيا، فلا يرضى بما قضاه الله عليه من الفناء والنقلة إلى الدار الآخرة، فيختم له، ويلقى الله وهو ساخط عليه»[(٣)].

ويقول ابن الجوزي ت٥٩٧هـ: «وقد يتعرَّضُ إبليسُ للمريض فيؤذيه في دينه ودنياه، وقد يستولي على الإنسان فيضله في اعتقاده، وربما حال بينه وبين التوبة... وربما جاء الاعتراض على المقدر؛ فينبغي للمؤمن أن يعلم أن تلك الساعة هي

(١) انظر: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٥/ ٨١٩).
(٢) رواه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٨/ ٢٨٣)، وأحمد (٣/ ٤٢٧) (١٥٥٦٢)، والطبراني (١٩/ ١٧٠) (٣٨١)، وحسنه ابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٣/ ٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) «معالم السنن» (٢/ ١٩٤).

مصدوقة للحرب، وحين يحمى الوطيس فينبغي أن يتجلَّد، ويستعينَ بالله على العدو»[(١)].

خامسًا: أحوال الناس عند الاحتضار:

تختلف أحوال الناس عند الموت كلٌّ بحسب عمله، وسنذكر فيما يلي أحوالهم:

١- سؤال الرجعة إلى الدنيا عند الاحتضار:

الكافرون والمفرطون في أمر الله تعالى يسألون الله ﷻ حال الاحتضار الرجعة إلى الحياة الدنيا؛ ليصلحوا ما كان أفسدوه في مدة حياتهم، قال تعالى عنهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

فالكافرون يسألون الرجعة عند الاحتضار؛ ليسْلَمُوا، والعصاة ليتوبُوا ويعملوا صالحًا، فلا يجابون إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ﴾، وكلا حرفُ رَدْعٍ وَزَجْر؛ أي: لا نجيبُه إلى ما طلب، ولا نقبل منه، وقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ﴾؛ أي: لابد أن يقولها لا محالة كلُّ محتضر ظالم، ولو رُدَّ لمَا عمِلَ صالحًا، ولكن يكذب في مقالته.

يقول الطبريُّ في تفسيره للآية السابقة: «يقول تعالى ذِكْرُه حتى إذا جاء أحدَ هؤلاء المشركين الموتُ، وعاين نزولَ أمر الله به، قال لعظيمِ ما يُعَاين، مما يقدُمُ عليه من عذاب الله تندمًا على ما فات، وتلهفًا على ما فرَّط فيه قبل ذلك من طاعة الله ومسألته للإقالة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا، فردوني إليها، لعلِّي أعمل صالحًا، يقول: كي أعمل صالحًا فيما تركت قبل اليوم، من العمل، فضيعته، وفرطت

---

(١) «الثبات عند الممات» (ص: ٤١، ٤٢). وانظر: «أحوال المحتضر» لمحمد العلي، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد: (١٢٤) (ص: ١٢٣)، و«الموسوعة العقدية – الدرر السنية» (٤/ ١٠٥).

فيه»[(١)].

ويقول السعديُّ: «يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك ليقول: لعلي أعمل صالحًا فيما تركت من العمل، وفرطت في جنب الله، ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾؛ أي: مجرد قول اللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدَّ لعادَ لِمَا نُهي عنه»[(٢)].

ويدلُّ على سؤال الرجعة وتمنيها حين الاحتضار؛ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:٩-١١].

فكلُّ مفرطٍ يندمُ عند الاحتضار، ويتحسَّر على ما فرَّط في وقت الإمكان، ويسأل الرجعة إلى الدنيا، ولو لمدة يسيرة، ليستعتب ويستدرك ما فاته وما فرط فيه، ويتصدق ويكون من الصالحين، لكن هيهات؛ فهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون:١١]؛ أي: لا يؤخر أحدًا بعد حلول أجله، وهو سبحانه أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شرٍّ مما كان

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٤٠).

(٢) «تفسير السعدي» (ص: ٥٠٨).

عليه[١].

قال أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله، من الأموال التي رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴿فَيَقُولَ﴾ إذا نزل به الموت: يا ﴿رَبِّ﴾ هلا ﴿أَخَّرْتَنِيٓ﴾، فتمهل لي في الأجل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ﴾ يقول فأزكي مالي، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أعمل بطاعتك، وأؤدي فرائضك، وقيل: عني بقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأحج بيتك الحرام»[٢].

وفي موضع آخر من كتاب الله تعالى يخبر جَلَّ وعلا عن حال الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب وحلول الأجل أنهم يسألون الرجعة وتأخير الأجل؛ نادمين على ما فعلوا؛ قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾[إبراهيم:٤٤]، وهذا كلُّه أملٌ في التخلُّص من العذاب الأليم، وإلَّا فهم كاذبون في وعودهم، ولهذا يوبخون بأن يقال لهم: ﴿أَوَ لَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ۝٤٤ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[إبراهيم:٤٤، ٤٥]؛ فهم يوبخون بتذكيرهم بكذبهم حين أقسموا أنهم لن يزولوا عن الدنيا إلى الآخرة، وهم يرون ويعلمون ما أحل بالأمم المكذبة قبلهم وما نزل بهم من العقوبات، ولكنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا؛ بل أعرضوا واستمرُّوا على باطلهم وظلمهم حتى وصلوا إلى اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار ولا تقبل فيه توبة[٣].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٧٣)، و«تفسير السعدي» (ص: ٨٠٢).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٨/ ٧٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٢٢ - ٥٢٣)، و«تفسير السعدي» (ص: ٣٨١ - ٣٨٢).

قال الشنقيطي(١): «قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ...﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠]، وما تضمنته الآية الكريمة من أن الكافر والمفرط في عمل الخير إذا حضر أحدهما الموت طلبًا الرجعة إلى الحياة؛ ليعملا العمل الصالح الذي يدخلهما الجنة، ويتداركا به ما سلف منهما من الكفر والتفريط، وأنهما لا يجابان إلى ذلك؛ كما دلَّ عليه حرفُ الزجر والردع الذي هو كلا، جاء موضحًا في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾[إبراهيم:٤٤] إلى غير ذلك من الآيات، وكما أنهم يطلبون الرجعة عند حضور الموت، ليصلحوا أعمالهم؛ فإنهم يطلبون ذلك يوم القيامة، ومعلوم أنهم لا يجابون إلى ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ الظاهر أنَّ ﴿لَعَلِّيٓ﴾ فيه للتعليل أي: ارجعون لأجلِ أن أعمل صالحًا، وقيل: هي للترجي والتوقع؛ لأنه غير جازم بأنه إذا رُدَّ للدنيا عمل صالحًا، والأول أظهر، والعمل الصالح يشمل جميع الأعمال من الشهادتين والحج، الذي كان قد فرط فيه، والصلوات والزكاة، ونحو ذلك، والعلم عند الله تعالى، وقوله: ﴿كَلَّآۚ﴾ كلمة زجر، وهي دالة على أن الرجعة التي طلبها لا يُعْطَاها كما هو واضح»(٢).

٢- فرح المؤمن بلقاء ربه:

إذا جاءت ملائكةُ الرحمن العبدَ المؤمنَ بالبشرى من الله ظهر عليه الفرحُ

---

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٨٢١، ٨٢٢).

(٢) «أحوال المحتضر» لمحمد العلي، مجلة الجامعة الإسلامية العدد (١٢٤ – ص: ١٢٠).

والسرور، ومن ثم؛ فإنَّ العبدَ المؤمنَ في حال الاحتضار يشتاق إلى لقاء الله، فقد روى أنس بن مالك، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»** قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: **«لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ...»**[(١)].

قال العلامة الإتيوبي في «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى» (١٨/ ٢٥٠): «مَن أَحَب لِقَاءَ اللَّهِ»؛ أي: المصير إلى الدار الآخرة، بمعنى: أن المؤمن عند الغرغرة يُبَشَّر برضوان الله، فيكون موته أحبَّ إليه من حياته. قيل: الحب هنا هو الذي يقتضيه الإيمان بالله، والثقة بوعده، دون ما يقتضيه حكم الجِبِلَّة.

وقال ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ **في «النهاية»:** «المراد بلقاء الله – هنا: – المصير إلى الدار الآخرة، وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت؛ لأن كُلًا يكرهه، فمن ترك الدنيا، وأبغضها أحبّ لقاء الله، ومن آثرها، وركن إليها كره لقاء الله، لأنه إنما يصل إليه بالموت. قال: وقول عائشة: «والموت دون لقاء الله» يبيّن أن الموت غير اللقاء، ولكنه مُعترِضٌ دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه، ويحتمِلَ مشاقّه حتى يصل إلى الفوز باللقاء.

قال الطِّيبيُّ: يريد أن قول عائشة: «إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ» يوهم أن المراد بلقاء الله في الحديث: الموت، وليس كذلك؛ لأن لقاء الله غير الموت، بدليل قوله في الرواية الأخرى: «والموت دون لقاء الله»، لكن لما كان الموت سببًا إلى لقاء الله عبَّر عنه بلقاء الله.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٠٧).

قال الحافظ: وقد سبق ابنُ الأثير إلى تأويل لقاء اللَّه بغير الموت الإمام أبو عبيد القاسم بن سلاّم؛ فقال: ليس وجهه عندي كراهة الموت، وشدّته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو عنه أحد، ولكن المذموم من ذلك إيثار الدنيا، والركون إليها، وكراهية أن يصير إلى اللَّه، والدار الآخرة. قال: ومما يُبيّن ذلك أن اللَّه تعالى عاب قومًا بحبّ الحياة؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾[يونس:٧]. انتهى.

وقال الخطابيُّ: معنى محبّة العبد للقاء اللَّه إيثاره الآخرة على الدنيا، فلا يحبُّ استمرار الإقامة فيها، بل يستعدّ للارتحال عنها، والكراهةُ بضدّ ذلك. انتهى.

وقال النوويُّ: معنى الحديث أن المحبّة والكراهة التي تُعتبر شرعًا هي التي تقع عند النزع في الحالة التي لا تُقبل فيها التوبة، حين ينكشف الحال للمُحتَضَر، ويظهر له ما هو صائر إليه انتهى.

«أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»؛ قال في «الفتح»: قال العلماء: محبة اللَّه لعبده إرادته الخير له، وهدايته إليه، وإنعامه عليه، وكراهته له على الضدّ من ذلك. انتهى.

قال الجامع – عفا اللَّه تعالى عنه –: تفسير محبّة اللَّه تعالى بما ذُكر تفسير باللازم، وهو غير صحيح، بل الذي عليه السلفُ، وأهلُ الحديث إثبات صفة المحبّة للَّه تعالى على ما يليق بجلاله، ثم إذا أحبّ اللَّه عبده أراد له الخير، وهداه إليه، وأنعم عليه. وعلى هذا الكراهة، فليُتفطّن، واللَّه تعالى أعلم.

تنبيه: قوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» إلخ. قال الكرمانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس الشرط سببا للجزاء؛ بل الأمر بالعكس، ولكنه على تأويل الخبر، أي: مَن أحبّ لقاء اللَّه أخبره بأن اللَّه أحبّ لقاءه، وكذلك الكراهة. وقال غيره فيما نقله ابن عبد البرّ وغيره «مَن» هنا خبرية، وليست شرطية؛ فليس معناه أن سبب حبّ اللَّه لقاء العبد حبّ العبد لقاءه، ولا الكراهة، ولكنه صفة حال الطائفتين في أنفسهم

عند ربّهم، والتقدير: من أحبّ لقاء اللَّه؛ فهو الذي أحب اللَّه لقاءه، وكذا الكراهة.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا حاجة إلى دعوى نفي الشرطية، فقد ثبت في «كتاب التوحيد» من «صحيح البخاريّ» في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه: **«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ...»** الحديث. فيتعيّن أن «من» في حديث الباب شرطيّة، وتأويلها ما سبق.

وقال في «الفتح» أيضًا: في قوله: «أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» العدولُ عن الضمير إلى الظاهر، تفخيمًا وتعظيمًا، ودفعًا لتوهّم عود الضمير على الموصول، لئلا يتّحد في الصورة المبتدأ والخبر، ففيه إصلاح اللفظ لتصحيح المعنى، وأيضًا فعود الضمير على المضاف إليه قليل.

قال الحافظ: وقرأت بخطّ ابن الصائغ في «شرح المشارق» يحتمل أن يكون لقاء اللَّه مضافًا للمفعول، فأقامه مقام الفاعل، ولقاءه إما مضاف للمفعول، أو للفاعل الضمير، أو للموصول، لأن الجواب إذا كان شرطًا، فالأولى أن يكون فيه ضمير، نعم هو موجود هنا، ولكن تقديرًا. انتهى.

ولذلك؛ فإن العبد الصالح يطالب حامليه بالإسراع به إلى القبر؛ شوقًا منه إلى النعيم؛ ففي **«صحيح»** البخاري و**«سنن»** النسائي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»**[١].

ولكن هذا ليس لازمًا لكل أحد؛ كما يقول ابن تيمية؛ بل من الناس من تعرض

(١) رواه البخاريُّ (١٣١٦)، والنسائي (٤/ ٤١).

عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا[١].

وقد ذكر ابنُ تيميَّةَ أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته، لأنه وقت الحاجة، واستدل بالحديث الذي في الصحيح: «**الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا**»[٢].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبد لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»[٣].

ولهذا رُوي: «أن الشيطان أشدُّ ما يكون على ابن آدم حين الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا؛ فإنه إنْ فاتكم لَنْ تظفروا به أبدًا»[٤].

سادسًا: فتح باب التوبة حتى الغرغرة:

الغرغرة هي لحظة نزع الروح وخروجها، وهناك علاقة بين الروح والتوبة؛ فما دامت الروح مستقرة في البدن؛ فباب التوبة مفتوح[٥]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ

---

(١) الحديث رواه البخاريُّ (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).
(٢) رواه البخاريُّ (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاريُّ (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٦)، ولم أقف عليه.
وانظر: «القيامة الصغرى» لعمر بن سليمان الأشقر (ص: ٢٨).
(٥) «اليوم الآخر» لعبد المحسن المطيري (ص: ٥٤).

ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٧، ١٨].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَبِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[النساء:١٧]؛ أي: ما كان دون الموت؛ فهو قريب، وقال الحسن البصري: مالم يغرغر(٣).

ولقد دلَّت الأحاديث الصحيحة على أن من تاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وهو يرجو الحياة؛ فإن توبته مقبولة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٧]، وأما متى وقع اليأس من الحياة، وعاين ملَكَ الموتِ، وخرجت الروحُ في الحَلْق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغر النفس صاعدة للخروج من البدن؛ فلا توبة مقبولة حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾[النساء:١٨](٤).

سابعًا: التوبة لا تقبل عند الموت:

أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون؛ فإنه تعالى يقبل توبتهم؛ حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٧].

---

(١) **حسن لغيره:** رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه.

(٣) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٨/ ٩) بتصرفٍ.

(٤) «اليوم الآخر» لعبد المحسن المطيري (ص: ٥٥).

وغيرها من الآيات الكثيرة، ويقول ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «**لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ، لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**»(١).

وعن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(٣).

وغيرها من الأحاديث الشريفة؛ فالنصوص الشرعية التي تحثُّ على التوبة كثيرة جدًّا، إلا أنها غير مقبولة عند الله تعالى إلا حين تتوفَّر شروطُها التي ذكرها العلماء؛ استقراءً من نصوص كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ومن تلك الشروط:

١- أن تكون التوبةُ خالصةً لوجه الله تعالى؛ فلا يُرادُ بها الدُّنيا، أو مَدْحُ الناس وثناؤهم.

٢- الإقلاعُ عن المعصية.

٣- الندمُ على فعلها.

٤- العزمُ على عدم العودة إليها.

---

(١) رواه ابن ماجه في «سننه»، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٤٢٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٧/٢) (ح٣٤٢٦).

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه»، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (ح٤٢٥٠)، وقال عنه الألباني: «حديث حسن» انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٨/٢) (ح٣٤٢٧).

(٣) رواه ابن ماجه في «سننه»، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٤٢٥١)، وقال عنه الألباني: «حديث حسن» في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٨/٢) (ح٣٤٢٨).

٥- إرجاعُ الحقوق إلى أصحابها، إن كانت المعصية حقوقًا للآخرين.

٦- أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت[(١)].

والذي يعنينا من هذه الشروط في هذا المبحث هو أن التوبة لا بد أن تكون قبل حضور الموت[(٢)]؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[النساء:١٧، ١٨].

يقول الطبري: «ما التوبة على الله لأحد من خلقه إلا للذين يعملون السوء من المؤمنين بجهالة، ثم يتوبون من قريب، يقول: ما الله براجع لأحدٍ من خلقه إلى ما يحبه من العفو عنه، والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالةً منهم، وهم بربهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعة الله، ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار وترك العودة إلى مثله قبل نزول الموت بهم، وذلك هو القريب الذي ذكره الله تعالى ذكره؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾[النساء:١٧]...، تأويله: يتوبون قبل مماتهم في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى، ونهيه، وقبل أن يغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة، وغمِّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة؛ لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف، وعزم فيه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة، وأما إذا كان بكرب الموت مشغولًا، وبغم الحشرجة مغمورًا فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبًا؛ ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر العبد بنفسه؛ فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقل

---

(١) انظر: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (١/ ٨٥).

(٢) انظر: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١١/ ٤٨٧).

الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأديب فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعة من شروده عن ربه إلى طاعته كان إن شاء الله ممن دخل في وعد الله الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم من قريب»[١].

فهذه الآية تدل على قبول الله تعالى للتوبة قبل حضور الموت، أما إذا حضر موته وغرغرت روحه؛ فليس توبتهُ معتبرةً حينئذٍ ولا مقبولة؛ قال ابنُ كثير في تفسيره للآيتين السابقتين: «يقول ﷻ إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة..؛ فقد دلت الأحاديث على أن من تاب إلى الله ﷻ وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة..، وأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وخرجت الروح من الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة من الغلاصم[٢]؛ فلا توبة مقبولة حينئذٍ، ولاتَ حين مناص[٣].

وهذا مثل قوله تعالى عن فرعون: ﴿...حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[يونس:٩٠، ٩١].

ففرعون كفر بالله تعالى وكذَّب رسوله عليه الصلاة والسلام، وأساء إلى نفسه أيام حياته وفي صحته بتماديه في طغيانه ومعصية ربه؛ فلما حلَّ به سخطُ الله، ونزل عليه عقابه، فزع إليه مستجيرًا به من عذابه الواقع به، وناداه وقد عَلَتْهُ أمواج البحر، وغشيته كُرَبُ الموت قائلًا: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ له المنقادين بالذلة والعبودية؛ فقال ﷻ معرفًا فرعون

---

(١) «جامع البيان في تفسير القرآن» (٢٠٢/٤، ٢٠٥)، وانظر: (ص٢٠٦).
(٢) **الغلاصم**: جمع غلصمة، وهي: رأس الحلقوم، انظر: «لسان العرب» (١٠٠٥/٢).
(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٩/١، ٤٤٠).

قُبْحَ صنيعهِ في حياته: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ آلآن تقرُّ بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهية، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك فأسخطته على نفسك، وكنت من الصادين عن سبيله؛ فهلا وأنت في مهلٍ وبابُ التوبة لك منفتحٌ أقررتَ بما أنت به الآن مقرٌّ؟!(١).

قال السعديُّ: «حتى إذا أدرك فرعون الغرق وجزم بهلاكه ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهو الله الحق، الذي لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى، قال الله تعالى، مبينًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ تؤمن، وتقر برسول الله ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب(٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ...﴾[النساء:١٧] الآية، وكلُّ من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، وأما من تاب عند معاينة الموت؛ فهذا كفرعون الذي قال: أنا الله؛ فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، قال الله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[يونس:٩١].

وهذا استفهامُ إنكارٍ بيَّن به أن هذه التوبة ليست هي التوبةَ المقبولةَ المأمورَ بها... ومثلُه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ

---

(١) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (١١/١١٣).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص: ٣٢٨، ٣٢٩).

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[غافر:٨٣، ٨٥] الآية، بين أن التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع، وأن هذه سنةُ الله التي قد خلَتْ في عباده؛ كفرعون وغيره»[١].

وقبول التوبة قبل حضور الموت؛ لأن الرجاء باق، ويصحُّ الندمُ والعزمُ على ترك الفعل؛ قال القرطبيُّ: قال علماؤنا - رحمهم الله -: وإنما صحت منه التوبة في هذا الوقت؛ لأن الرجاء باق، ويصحُّ الندمُ والعزمُ على ترك الفعل، وقيل: المعنى يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار، والمبادرة في الصحة أفضَلُ، وألحَقُ لأمله في العمل الصالح والبعد كل البعد عن الموت، وأما ما كان قبل الموت فهو قريب»[٢].

وقد أخبر الله تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر بأنهم لما رأوا وقوع عذاب الله بهم وحَّدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت؛ فلم يقبل الله منهم توبتهم؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[غافر:٨٤، ٨٥]؛ فهذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، وهذه سنة الله وعادته أن المكذبين حين ينْزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا كان إيمانهم غير صحيح ولا مقبولًا؛ لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان المقبول المنجي هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب[٣].

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» (١٨/ ١٩٠، ١٩١).
(٢) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (١/ ٨٥).
(٣) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٩١)، و«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص٦٩٠).

يقول الطبريُّ: «لم يك ينفعهم تصديقهم في الدنيا بتوحيد الله عند معاينة عقابه قد نزل، وعذابه قد حل؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقًا؛ إذ كان قد مضى حكم الله في السابق من علمه أن من تاب بعد نزول العذاب من الله على تكذيبه لم تنفعه توبته»(١).

ويشهد لهذا الشرط المهم من شروط قبول التوبة ما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»(٢)؛ أي: فإذا غرغر، وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك؛ فلا توبة حينئذٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[آل عمران:٩٠]؛ قال بعض العلماء بأن المراد: إذا أخروا التوبة إلى حضور الموت فتابوا حينئذ، فلن تقبل توبتهم، فيكون مثل قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النساء:١٨]، وتقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد، ولا سيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا(٣).

وروى الطبريُّ بسنده عن الحسن البصري قوله في هذه الآية هم اليهود والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت(٤).

وقال ابنُ تيمية: «قال الأكثرون... لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت...، قلت: وذلك لأن التائب راجع عن الكفر، ومن لم يتب؛ فإنه مستمر يزداد كفرًا

---

(١) «جامع البيان في تفسير القرآن» (٢٤/٥٨).
(٢) رواه ابن ماجه في «سننه»، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، (٤٢٥٣)، وقال الألباني عنه: «حسن». انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/٤١٨) (ح ٣٤٣٠).
(٣) انظر: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (١/٣٤٣).
(٤) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٣/٢٤٣).

بعد كفر؛ فقوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ﴾ بمنْزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص؛ فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت؛ لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب، ورجع عن كفره، فلم يزدد بل نقص، بخلاف المصر إلى حين المعاينة؛ فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلًا عن هدمه»[(١)].

أما ما ثبت أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: **«أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ...»**[(٢)] الحديث؛ فقد قال ابن حجر بأنه ﷺ لقَّن عمَّه الشهادة قبل أن يدخل في الغرغرة، وقول الرسول ﷺ: **«أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»** كأنه عليه الصلاة والسلام فَهِمَ من امتناع أبي طالب من الشهادة في تلك الحالة أنه ظن أن ذلك لا ينفعه؛ لوقوعه عند الموت؛ أو لكونه لم يتمكن من سائر الأعمال الصالحة كالصلاة وغيرها؛ فلذلك ذكر له المحاجة، وأما لفظ (الشهادة)؛ فيحتمل أنه يكون ظن أن ذلك لا ينفعه؛ إذ لم يحضر حينئذٍ أحدٌ من المؤمنين مع النبيِّ ﷺ؛ فطيب قلبه بأن يشهد له بها فينفعه، وهذا يدلُّ على أن التوبة مقبولة، ولو في شدة مرض الموت، حتى يصل إلى المعاينة، فلا يقبل[(٣)]، كما يدل هذا الحديث على أن الكافر إذا شهد شهادة الحق المعاينة وتحقق الموت نجا من العذاب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله[(٤)].

ونقل ابن حجر عن الكرماني قوله بأن عرض الرسول ﷺ الشهادة على عمه

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٦/ ٢٩).
(٢) رواه البخاريُّ في «صحيحه»، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (ح٣٨٨٤).
(٣) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٧/ ١٩٥، ١٩٦)، وانظر: ما ذكره ابن بطال في «شرح صحيح البخاري» (٣/ ٣٤٤).
(٤) انظر: المصدر السابق (ص١٩٦).

كان عند حضور علامات الوفاة، وإلا فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم، ثم قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة، لكن رجا النبيُّ ﷺ أنه إذا أقر بالتوحيد، ولو في تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه، وتسوغ شفاعته ﷺ لمكانه منه، ولهذا قال: «**أُجَادِلُ لَكَ بِهَا**»، «**وَأَشْفَعُ لَكَ**»...، ويؤيد الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد، وقال: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ومات على ذلك أن النبي ﷺ لم يترك الشفاعة له، بل شفع له حتى خفف عنه العذاب بالنسبة لغيره، وكان ذلك من الخصائص في حقه[1]، يشير في هذا إلى ما ثبت أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؛ فَقَدْ كَانَ يَحُوطُكَ، وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ ﷺ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[2].

وقال ابنُ بطال: «فإن قال قائل: فأيُّ محاجة يحتاج إليها من وافى ربه بها يدخله به الجنة؟ فالجواب: أنه يحتمل وجوهًا من التأويل:

أحدها: أن يكون ظن عليه السلام أن عمه اعتقد أن من آمن في مثل حاله لا ينفعه إيمانه؛ إذ لم يقارنه عمل سواه من صلاة وصيام وزكاة وحج وشرائط الإسلام كلها؛ فأعلمه عليه السلام أن من قال: لا إله إلا الله عند موته أنه يدخل في جملة المؤمنين، وإن تعرى من عمل سواها.

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن يكون أبو طالب قد عاين أمر الآخرة، وأيقن بالموت، وصار في حالة من لا ينتفع بالإيمان لو آمن، وهو الوقت الذي قال فيه: هو على ملة عبد المطلب، عند خروج نفسه، فرجا له عليه السلام إن قال: لا إله إلا الله،

(١) المصدر السابق (٨/٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (ح٣٨٨٣).

وأيقن بنبوته أن يشفع له بذلك، ويحاج له عند الله في أن يتجاوز عنه، ويتقبل منه إيمانه في تلك الحال، ويكون ذلك خاصًا لأبي طالب وحده؛ لمكانه من الحماية والمدافعة عن النبي ﷺ...

ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن أبا طالب كان ممن عاين براهين النبي ﷺ وصدق معجزاته، ولم يشك في صحة نبوته، وإن كان ممن حملته الأنفة وحمية الجاهلية على تكذيب النبي...، فاستحقَّ أبو طالب ونظراؤه على ذلك من عظيم الوزر وكبير الإثم أن باؤوا بإثمهم على تكذيب النبيِّ ﷺ، فرجا له ﷺ المحاجة بكلمة الإخلاص عند الله، حتى يسقط عنه إثم العناد والتكذيب لما قد تبين حقيقته وإثم من اقتدى به في ذلك، وإن كان الإسلام يهدم ما قبله؛ لكن آنسه بقوله: «**أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»؛ لئلا يتردد في الإيمان، ولا يتوقف عليه؛ لتماديه على خلاف ما تبين حقيقته، وتورطه في أنه كان مضلًا لغيره.

وقيل: إن قوله: «**أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»؛ كقوله: «أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»؛ لأن الشهادة المرجحة له في طلب حقه؛ ولذلك ذكر البخاريُّ هذا الحديث في هذا الباب بلفظ «الشهادة»[1]؛ لأنه أقرب للتأويل، وذكر قوله: «أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» في قصة أبي طالب في كتاب مبعث النبي ﷺ، لاحتمالها التأويل»[2].

ونص بعض أهل العلم على أن الخبر الذي فيه حضور أبي طالب الوفاة مطابق لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وبالتالي؛ فإن الأوضح أن يقال بأن ذلك خاص بالنبي ﷺ مع أبي طالب، واستدل من قال بهذا القول بأمرين:

الأول: أن الرَّسُول ﷺ قال: «**أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: تخرجك من النار.

(١) أي: في باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، من كتاب «الجنائز».
(٢) «شرح صحيح البخاري» (٣/ ٣٤٤- ٣٤٦).

الثاني: أنه سبحانه أذن للنبيِّ ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب[١].

هذه أقوالُ بعض أهل العلم في قصة أبي طالب، ولعلَّ الأقربَ أن تكون خاصة به، وعلى كل الأحوال؛ فإن مما لا خلاف فيه أن الذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على المعاصي حتى إذا حضر أحدهم الموت، وحشرج بنفسه، وعاين الملائكة قد أقبلوا عليه لقبض روحه، وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه بشغله بكَرْب حَشْرجته وغَرْغَرتِه قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾؛ فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة[٢].

فإن قيل: هل تصح توبة من حكم عليه بالقتل، أو حضر في مكان يحترق أو كان في طائرة حدث فيها خلل، وبدأت تهوي إلى الأرض، ونحو هذه الحالات.

فإنه يقالُ: نعم تصحُّ توبةُ هؤلاء؛ لأنهم ربما ينجون من الموت؛ فمن هَوَتْ به الطائرة، أو كان في بيتٍ يحترق، فربَّما ينجو، وكذلك مَنْ حكم عليه بالقتل فربما يرفع القتل عنه[٣].

ثامنًا: خروج روح المؤمن واحتضاره:

١- قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[يونس:٦٢- ٦٤].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (١٥/١٢٤): «ثم اختلف أهل التأويل في ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾

(١) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١/٣٥٤).
(٢) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٤/٢٠٥، ٢٠٦).
(٣) انظر: «فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين» (٢/٩٩٠). نقلًا عن رسالة «أحوال المحتضر» (ص: ١١٥).

التي بشر الله بها هؤلاء القوم ما هي؟ وما صفتها؟ فقال بعضهم: هي الرؤية الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له، وفي الآخرة الجنة..

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. ومنها: بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله.

وقال آخرون: هي بشارة يبشر بها المؤمن في الدنيا عند الموت».

وقال السعدي في «**تفسيره**» **(ص: ٣٦٨)**: «فكلُّ من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليًّا، و﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

أما البشارة في الدنيا؛ فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت:٣٠].

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم.

وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم».

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[فُصِّلَت:٣٠، ٣١].

قال الطبري في «**تفسيره**» **(٢١/ ٤٦٦)**: «وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾

يقول: تتهبط عليهم الملائكة عند نزول الموت بهم.

وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ يقول: تتنزل عليهم الملائكة بأن لا تخافوا ولا تحزنوا؛ فإن في موضع نصب إذا كان ذلك معناه.

وقد ذكر عن عبد الله أنه كان يقرأ ذلك ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ بمعنى: تتنزل عليهم قائلة: لا تخافوا، ولا تحزنوا. وعنى بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدمون عليه من بعد مماتكم ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما تخلفونه وراءكم».

وقال ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٤/ ١٥٢): «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مخلصين له ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ عليها ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ الآية.

تفسير الحسن: أن قول الملائكة لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا؛ تستقبلهم بهذا إذا خرجوا من قبورهم».

وقال السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٥٠): «وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: عند الموت، ويقال: عند البعث. في التفسير: أنه إذا بعث العبد تلقاه الملكان اللذان كانا يحفظانه ويكتبان عليه، ويقولان له: لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد، ولا يهولك الذي تراه، فإنما أريد به غيرك. وعن أبي العالية الرياحي قال: يبشر المؤمن في ثلاثة مواطن: عند دخول القبر، وعند البعث، وعند دخوله الجنة.

وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾؛ أي: لا تخافوا ما بين أيديكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما خلفتم من أهل وولد وضيعة.

وقوله: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾؛ أي: توعدون في كتب الله وعلى ألسنة رسله».

وقال البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٣): «قوله ﷻ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ قال ابن عباس: عند الموت. وقال قتادة ومقاتل: إذا قاموا من قبورهم. قال وكيع ابن الجراح: البشرى تكون في ثلاث مواطن: عند الموت وفي القبر وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ من الموت. وقال مجاهد: لا تخافوا على ما تَقْدُمون عليه من أمر الآخرة. ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما خلَّفتم من أهل وولد، فإنَّا نخلُفكُم في ذلك كلِّه. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم».

قال القرطبيُّ في «تفسيره» (١٥/ ٣٥٨): «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أي: بـ: «ألا تخافوا» فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت. ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على أولادكم؛ فإن الله خليفتكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، وقال عكرمة: ولا تخافوا إمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبكم. ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾. قال مجاهد: أي: نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا؛ فإذا كان يوم القيامة قالوا: لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة. وقال السدي: أي: نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله ولي المؤمنين ومولاهم. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ أي: من الملاذ. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾».

وقال السعدي في «تفسيره» (١/ ٧٤٨): «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام؛ أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ على ما يستقبل

من أمركم، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا، ويقولون لهم أيضًا - مثبتين لهم، ومبشرين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد:٢٤]، ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ قد أعد وهيئ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

٣- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل:٣١، ٣٢].

قال الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٩٨): «يقول تعالى ذكره: كذلك يجزي الله المتقين الذين تقبض أرواحهم ملائكة الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطهر الإسلام في حال حياتهم وحال مماتهم.

وقوله ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يعني جَلَّ ثناؤه أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة.

وقوله ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: بما كنتم تصيبون في الدنيا أيام حياتكم فيها طاعة الله، طلب مرضاته».

وقال ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ٤٠١): «﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تقبض أرواحهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ يعني: أحياءً وأمواتًا ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وعن حيوة بن شريح قال: إن الملائكة تأتي ولي الله عند الموت فتقول: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام. وتبشره بالجنة».

وقال السمعاني في «تفسيره» (٣/ ١٧٠): «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ يعني: طاهرين زاكين من الشرك، وقيل: معناه: أن وفاتهم تقع طيبة سهلة.

قوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يقال: إن المراد منه تسليم الملائكة، يبلغون سلام الله إليهم، وفي الأخبار: «أنهم يقولون لكل واحد منهم: السلام عليك يا ولي الله». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الميت المؤمن يزف إلى الله كما تزف العروس. وقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: يقال لهم: ادخلوا الجنة بإيمانكم وطاعتكم».

وقال البغوي في «تفسيره» (٥/ ١٧): «﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ مؤمنين طاهرين من الشرك.

قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم.

وقيل: معناه: إن وفاتهم تقع طيبة سهلة. ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: الملائكة لهم، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ وقيل: يبلغونهم سلام الله، ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٤٣٩): «﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾؛ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه،

وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾؛ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة.

وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره؛ فإن العمل هو السبب والمادة، والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم».

٤- وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٤/ ٤٢٢): «وقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾[الفجر:٢٧، ٢٨] يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل الملائكة لأوليائه يوم القيامة: يا أيتها النفس المطمئنة، يعني بالمطمئنة: التي اطمأنت إلى وعد الله الذي وعد أهل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة، فصدقت بذلك.

وقوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: هذا خبر من الله جَلَّ ثناؤه عن قيل الملائكة لنفس المؤمن عند البعث، تأمرها أن ترجع في جسد صاحبها؛ قالوا: وعني بالرد هاهنا صاحبها.

وقال آخرون: بل يقال ذلك لها عند الموت.

وأولى القولين في ذلك بالصواب: القول الذي ذكرناه عن ابن عباس والضحاك، أن ذلك إنما يقال لهم عند رَدِّ الأرواح في الأجساد يوم البعث؛ لدلالة قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾».

وقال البغويُّ في «تفسيره» (٨/ ٤٢٣): «قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ما وعد الله ﷻ المصدقة بما قال الله. وقال مجاهد: ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ التي أيقنت أنَّ اللهَ تعالى ربُّها، وصبرت جأشًا لأمره وطاعته.

وقال الحسن: المؤمنة الموقنة، وقال عطية: الراضية بقضاء الله تعالى. وقال الكلبي: الآمنة من عذاب الله.

وقيل: المطمئنة بذكر الله، بيانه: قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

واختلفوا في وقت هذه المقالة؛ فقال قوم: يقال لها ذلك عند الموت؛ فيقال لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى الله ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عنك.

وقال الحسن: إذا أراد الله قبضها اطمأنت إلى الله، ورضيت عن الله ورضي الله عنها.

وقال أبو صالح في قوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ قال: هذا عند خروجها من الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث يقال: ارجعي إلى ربك أي: إلى صاحبك وجسدك؛ فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد، وهذا قول عكرمة، وعطاء، والضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس.

وقال الحسن: معناه: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته، راضية عن الله بما أعد لك، مرضية، رضي عنك ربك».

وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « تفسير» (٨/ ٤٠٠): «﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته، ﴿رَاضِيَةً﴾؛ أي: في نفسها ﴿مَّرْضِيَّةً﴾؛ أي: قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها، ﴿فَٱدْخُلِى فِى

عِبَٰدِى﴾؛ أي: في جملتهم، ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضًا، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك هاهنا».

وقال القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «تفسيره» (٩/ ٤٧٣):** «﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾؛ أي: الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن. وهي التي كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب. ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ أي: وعده وثوابه ﴿رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾ أي راضية بما أوتيت، مرضية عند ربها. ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾؛ أي: في زمرتهم، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾؛ أي: معهم. وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة.

ومن غرائب المأثور هنا: تأويلُ النفسِ بالروح، والربِّ بصاحبها؛ أي: ارجعي إلى جسد صاحبك إيذانًا بأن الأرواح المطمئنة تردّ يوم القيامة في الأجساد، وأن لها مقرًّا قبل تعلقها بالبدن في عالم الملكوت. والمسألة من الغوامض؛ بل من الغيوب. وبمعرفة نظائر التنزيل، يظهر بُعْدُ هذا التأويل».

٥- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الآية [الواقعة:٨٨، ٩١].

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾؛ أي: المحتضر ﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، وهم فعلوا الواجبات والمستجاب، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾؛ أي: فلهم رَوْحٌ وريحانٌ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ﴿فَرَوْحٌ﴾ راحة، أو الراحة من الدنيا (والروح) الفرح ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جنة ورخاء ﴿فَرَوْحٌ﴾ فرحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ رزق.

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة؛ فإن من مات مقربًا حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾؛ أي: لا يموت أحد من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هُو أم من أهل النار؟.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك؛ أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين.

السلام ثلاثة مواضع:

- عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الدنيا.
- عند مساءلته في القبر يسلم عليه منكر ونكير.
- عند بعثه في القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إلى الجنة، ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام[(١)].

وفي السنة من حديث البراء ﷺ أن الملائكة تأتي بالبشرى للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، فعنه ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ:

(١) انظر: «اليوم الآخر في القرآن العظيم» (ص٦٤)، و«الإيمان باليوم الآخر» (ص: ٢٨).

«اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ»[1].

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ...»[2].

وفي روايةٍ أخرى قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتُضِرَ حَضَرَهُ مَلَكَانِ يَقْبِضَانِ رُوحَهُ فِي حَرِيرَةٍ، فَيَصْعَدَانِ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدَانِ بِهِ، فَيُقَالُ: أَبْشِرْ بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، ثُمَّ يُقَالُ: رُدُّوهُ إِلَى آخِرِ الْأَجَلَيْنِ،...»[3].

(١) **صحيح**: سبق تخريجه.
(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٤/ ٣٧٧)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٣٥) من طريق سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، به.
(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٣٤) وغيره من طريق عبد الله بن شقيق، عن أبي هريرة، به.

تاسعًا: خروج روح الكافر أو الفاسق أو العاصي واحتضاره:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٥٣٧): «يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ﴾[الأنعام:٩١]، والمفترين على الله كذبًا، الزاعمين أنَّ الله أوحى إليه ولم يوحَ إليه شيء، والقائلين: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾[الأنعام:٩٣] «سأنزل مثل ما أنزل الله»، فتعاينهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله، وحان فناء آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم؛ كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[محمد:٢٧، ٢٨]. يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم... وأما «بسط الملائكة أيديها»؛ فإنه مدُّها».

وقال البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٤٥): «﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، يا محمد، ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، سكراته وهي جمع غمرة، وغمرة كلِّ شيءٍ معظمُه، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره، والملائكة باسطوا أيديهم، بالعذاب والضرب يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل: بقبض الأرواح، أخرجوا؛ أي: يقولون أخرجوا، أنفسكم؛ أي: أرواحكم كرهًا؛ لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه، ونفس الكافر تكره ذلك، والجواب محذوف، يعني: لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجبًا، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛

أي: الهوان، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٢٦٥): «ولما ذَمَّ الظالمين، ذكر ما أَعَدَّ لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة؛ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكُرَبه الشنيعة - لرأيت أمرًا هائلًا وحالةً لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعَصِّيها للخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشديد، الذي يهينُكُم ويذلُّكم، والجزاء من جنس العمل؛ فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: تَرَفَّعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه؛ فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه؛ فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة؛ فإنهم إذا وردُوها، ورَدُوها مُفْلسين فُرَادَى بلا أهلٍ ولا مالٍ، ولا أولادٍ ولا جنودٍ، ولا أنصارٍ، كما خلقهم الله أول مرة، عارِيْن من كلِّ شيء».

٢- وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[النحل:٢٨، ٢٩].

قال البغويُّ في «تفسيره» (٥/ ١٦): «﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ وَأَعْوَانُهُ، قَرَأَ حَمْزَةُ «يَتَوَفَّاهُمْ» بِالْيَاءِ وَكَذَا مَا بَعْدَهُ، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ بِالْكُفْرِ، وَنُصِبَ عَلَى الْحَالِ؛ أَيْ: فِي حَالِ كُفْرِهِمْ، ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أَيِ: اسْتَسْلَمُوا وَانْقَادُوا وَقَالُوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ﴾ شِرْكٍ؛ فَقَالَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: عَنَى بِذَلِكَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْكُفَّارِ بِبَدْرٍ».

وقال القاسمي في «تفسيره» (٦/ ٣٦٤): «﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[النحل:٢٨، ٢٩] هذا إخبارٌ عن حال المشركين الظالمي أنفسهم -ويدخل فيه كلُّ من ظلم نفسه سواء بالشرك أو المعاصي - بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم؛ أي: ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقَّة. والعدولُ إلى صيغة الماضي؛ للدلالة على تحقق الوقوع. وأصل الإلقاء في الأجسام. فاستعمل في إظهار الانقياد؛ إشعارًا بغاية خضوعهم واستكانتهم.

وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب. على الاستعارة. وقوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ﴾ منصوب بقول مضمر، حال؛ أي قائلين ذلك. أو هو تفسير (للسَّلَم) الذي ألقوه، لأنه بمعنى القول. بدليل الآية الأخرى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾[النحل:٨٦]؛ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[المجادلة:١٨]، ثم

أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ أي: مقدَّرًا خلودكم».

وقال ابنُ كثير: «وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم. وينال أجسادهم، في قبورها. من حرّها وسمومها. فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، لا يُقْضى عليهم فيموتوا ولا يُخَفف عنهم من عذابها».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٤٣٩): «أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كَثُر فيها ظُلْمهم وغيُّهم، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ كنتم تعملون السوء فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئًا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا؛ ظنًّا أنه ينفعهم؛ فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبيَّن ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم».

٣- وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

قال البغوي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٨): «ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْمَوْتِ؛ فَقَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ وَلَمْ يَقِلِ: ارْجِعْنِي، وَهُوَ يَسْأَلُ اللَّهَ وَحْدَهُ الرَّجْعَةَ،

عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّهُمْ يُخَاطِبُونَ الْوَاحِدَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. وَقِيلَ: هَذَا الْخِطَابُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ رَوْحَهُ ابْتِدَاءً بِخِطَابِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَغَاثُوا بِاللَّهِ أَوَّلًا ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى مَسْأَلَةِ الْمَلَائِكَةِ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾؛ أَيْ: ضَيَّعْتُ أَنْ أَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقِيلَ: أَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٥٥٩): «يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[المؤمنون:١٠٠] من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّآۚ﴾؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾؛ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدَّ لعاد لِمَا نُهِي عنه».

٤- وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[المنافقون:١٠،١١].

وقال الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤١٠): «وأنفقوا أيها المؤمنون بالله ورسوله من الأموال التي رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول إذا نزل به الموت: يا رب هلا أخرتني فتُمَهل لي في الأجل إلى أجل قريب. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ يقول: فأُزكي مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقول: وأعمل بطاعتك، وأؤدي فرائضك. وقيل: عنى بقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وأحج بيتك الحرام».

وقال ابن الجوزي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٠): «قوله ﷻ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ قال الزجاج: أي: من قبل أن يعاين ما يعلم منه أنه ميّت».

٥- وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[الأنفال: ٥٠، ٥١].

قال البغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٦٧): «﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ﴾؛ أَيْ: يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ. اخْتَلَفُوا فِيهِ، قِيلَ: هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، تَضْرِبُ الْمَلَائِكَةُ وُجُوهَ الْكُفَّارِ وَأَدْبَارَهُمْ بِسِيَاطِ النَّارِ... وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يُرِيدُ مَا أَقْبَلَ مِنْهُمْ وَمَا أَدْبَرَ؛ أَيْ: يَضْرِبُونَ أَجْسَادَهُمْ كُلَّهَا، وَالْمُرَادُ بِالتَّوَفِّي: الْقَتْلُ. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾؛ أَيْ: وَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. وَقِيلَ: كَانَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ يَضْرِبُونَ بِهَا الْكُفَّارَ، فَتَلْتَهِبُ النَّارُ فِي جِرَاحَاتِهِمْ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾».

وقال القاسمي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٨): «﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: يقبض أرواحهم ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: ملائكة القهر والعذاب مما يناسب هيئات نفوسهم ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾ لإعراضهم عن الحق، ولهيآت الكبر والعجب والنخوة فيها ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ لميلهم إلى الباطل، وشدة انجذابهم إليه، ولهيئات الشهوة والحرص والشره ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ عطف على ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ بإضمار القول؛ أي: ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة.

وجواب (لو) محذوف، لتفظيع الأمر وتهويله».

وقال ابن كثير: «وهذا السياق، وإن كان سببهُ وقعةَ بدر، ولكنه عامٌّ في حق كل كافر. وفي سورة القتال مثل هذه الآية. وتقدم في الأنعام نحوها، وهو قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[الأنعام:٩٣]؛ أي: بالضرب فيهم بأمر ربهم».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٣٢٣): «يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكَّلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم، غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين؛ فإن دأب هؤلاء المكذبين؛ أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم».

٦- وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٧].

هذه الآية فيها التصريح بضرب وجوه الكافرين وأدبارهم عند النزع.

قال الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٨٣): «يقول تعالى ذِكْرُه: والله يعلم إسرار هؤلاء المنافقين؛ فكيف لا يعلم حالهم إذا توفتهم الملائكة، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، يقول: فحالهم أيضا لا يخفى عليه في ذلك الوقت ويعني بالأدبار: الأعجاز، وقد ذكرنا الرواية في ذلك فيما مضى قبل».

وقال القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٥٠): «قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾؛ أي: فكيف تكون حالهم. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾؛ أي: ضاربين؛ فهو في موضع الحال.

ومعنى الكلام: التخويف والتهديد؛ أي: إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر.

وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه. وقيل: ذلك عند القتال نصرة لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سوقهم إلى النار.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة؟!.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه {ب} سبب ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان»[1].

وفي حديث البراء رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ...**»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أيضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ... وَإِذَا**

(١) انظر: «الإيمان باليوم الآخر» (ص: ٣٤).
(٢) سبق تخريجه.

كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ فَيَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ»(١).

عاشرًا: أين تصير روح المؤمن والكافر بعد خروجها، وقبل دخول القبر؟

١- فأما روح المؤمن؛ ففي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَخْفِضُ بَصَرَهُ وَيَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» قَالَهَا مِرَارًا ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي قِبَلٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا جَاءَهُ مَلَكٌ، فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ نَفْسُهُ فَتَسِيلُ كَمَا يَسِيلُ قَطْرُ السَّمَاءِ**، قَالَ عَمْرٌو فِي حَدِيثِهِ: لَمْ يَقُلْهُ أَبُو عَوَانَةَ، **وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَتَنْزِلُ مَلَائِكَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ أَكْفَانٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِهَا فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، فَإِذَا قَبَضَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾**[الأنعام:٦١].

قَالَ: فَتَخْرُجُ نَفْسُهُ كَأَطْيَبِ رِيحٍ وُجِدَتْ، فَتَعْرُجُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ فَلَا يَأْتُونَ عَلَى جُنْدٍ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى أَبْوَابِ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُفْتَحَ لَهُ وَتُشَيِّعَهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيُقَالُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: رُدُّوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٤/ ٣٧٧)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص: ٤٥) من طريق سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، به.

وَعَدْتُهُمْ أَنِّي ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[طه:٥٥].

قَالَ: فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّنَا فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُهُ قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[إبراهيم:٢٧].

ثُمَّ قَالَ: وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْرُشُوهُ مِنْهَا، وَأَرُوهُ مَنْزِلَهُ فِيهَا، فَيَلْبِسُ مِنَ الْجَنَّةَ وَيُفْرَشُ مِنْهَا، وَيَرَى مَنْزِلَهُ فِيهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيَمْثُلُ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ حَسَنِ الْوَجْهِ طَيِّبِ الرِّيحِ حَسَنِ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، فَيَقُولُ: بَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي جَاءَنَا بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئًا فِي مَعْصِيَتِهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ كَيْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا» – قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ – قَالَ: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى الله عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عز وجل، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ»[(١)].

وعنه أيضًا في روايةٍ أخرى: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَمَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ فَيَعْرُجَ بِهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ

(١) رواه مسلم (٧٥)(٢٨٧٢).

بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحَ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، أَظُنُّهُ أَرَادَ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ»(١).

٢ - وأما روح العاصي أو الكافر، قَالَ: «وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَاجِرًا، وَكَانَ فِي قِبَلٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا جَاءَهُ مَلَكٌ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَبْشِرِي بِسَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، فَتَنْزِلُ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ مُسُوحٌ، فَإِذَا قَبَضَهَا الْمَلَكُ قَامُوا فَلَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَسْتَخْرِجُهَا تُقْطَعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصْبُ كَالسَّفُّودِ الْكَثِيرِ الشُّعَبِ فِي الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتُؤْخَذُ مِنَ الْمَلَكِ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحٍ وُجِدَتْ، فَلَا تَمُرُّ عَلَى جُنْدٍ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ، فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانٌ بِأَسْوَإِ أَسْمَائِهِ حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ إِلَى الْأَرْضِ إِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى قَالَ: فَيُرْمَى مِنَ السَّمَاءِ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١].

قَالَ: فَيُعَادُ إِلَى الْأَرْضِ وَتُعَادُ فِيهِ رُوحُهُ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ: فَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ، وَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ فَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، وَيَتَمَثَّلُ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ قَبِيحِ الْوَجْهِ مُنْتِنِ الرِّيحِ قَبِيحِ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي جَاءَنَا بِالشَّرِّ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٤/ ٣٧٧)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص: ٤٥) من طريق سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، به.

كُنْتَ بَطِيئًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَتِهِ» قَالَ عَمْرٌو فِي حَدِيثِهِ: عَنْ مِنْهَالٍ، عَنْ زَاذَانَ، عَنِ الْبَرَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«فَيُقَيَّضُ لَهُ أَصَمُّ أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا فِيلٌ صَارَ تُرَابًا، أَوْ قَالَ رَمِيمًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً تَسْمَعُهَا الْخَلَائِقُ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى»**(١).

وعَنْ أبي هريرة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ... وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ فَيَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ»**(٢).

وفي روايةٍ قَالَ: **«وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ** - قَالَ حَمَّادٌ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْنًا - **وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ: خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ. قَالَ فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ»**، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْفِهِ، هَكَذَا(٣).

الحادي عشر: تخيير الأنبياء عند الموت:

روى البخاريُّ بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه مسلم (٧٥)(٢٨٧٢).
قال النووي في «شرحه على مسلم» (١٧/ ٢٠٥): «قال القاضي: المراد بالأول: انطلقوا بروح المؤمن إلى سدرة المنتهى، والمراد بالثاني: انطلقوا بروح الكافر إلى سجين؛ فهي منتهى الأجل، ويحتمل أن المراد إلى انقضاء أجل الدنيا. قوله: «فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْفِهِ»، الريطة بفتح الراء وإسكان الياء، وهو: ثوب رقيق، وقيل: هي الملاءة، وكان سببَ رَدِّها على الأنف بسبب ما ذُكِر من نَتَن ريحِ روحِ الكافر».

«**مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»، وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿**مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ**﴾[النساء:٦٩]، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[1].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كُنْتُ أَسْمَعُ: أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ، يَقُولُ: ﴿**مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم**﴾[النساء:٦٩] الآيَةَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[2].

وفي رواية عنها قالت: «لَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ المَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**»[3].

وفي رواية أخرى قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ**»، فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ»[4].

فمعنى قوله ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»؛ أي: خيره الله تعالى بين الإقامة في الدنيا والموت؛ لتكون وفادته على الله وفادة محبٍّ مخلصٍ مبادر، ولتقاصر المؤمن عن يقين النبيِّ ﷺ تولى الله الخيرة في لقائه؛ لأنه وليه، ألا ترى إلى خبر: «**مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ روح عبدي المُؤْمِن**»[5]، ففي

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٦).
(٢) رواه البخاري (٤٤٣٥).
(٣) رواه البخاري (٤٤٣٦).
(٤) رواه البخاري (٤٤٣٧).
(٥) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيءٍ أَنَا فَاعِلُهُ؛ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ».

ضمن ذلك اختيار الله للمؤمن لقاءه؛ لأنه وليه، يختار له فيما لا يصل إليه إدراكه(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، النَّاسَ وَقَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ ذَلِكَ العَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ»**، قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ: أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هُوَ المُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»**(٢).

قال ابن حجر: «فهم عائشة من قوله صلى الله عليه وسلم: **«فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»** أنه خير، نظير فهم أبيها رضي الله عنه من قوله صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»**(٣) أن العبد المراد هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى بكى»(٤).

وقال بدر الدين العيني ت٨٥٥هـ: «قول (خير) على صيغة المجهول؛ أي: خير بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة صلى الله عليه وسلم»(٥).

هذه الأحاديث الصحيحة تدلُّ على أنه ما من نبي يمرضُ إلا خُيِّرَ بين البقاء في الحياة الدنيا والموت.

وقد ثبت أن ملَكَ الموتِ عليه السلام جاء إلى موسى عليه السلام؛ فخيره بين الموت والحياة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ»** قَالَ: **«فَلَطَمَ مُوسَى عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا»**، قَالَ: **«فَرَجَعَ**

---

(١) «فيض القدير» (٥/ ٥٠١).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) «فتح الباري» (٧/ ١٣).

(٥) «عمدة القاري» (١٨/ ١٧٨).

الْمَلَكُ إِلَى اللهِ ﷻ فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي» قَالَ: «فَرَدَّ اللهُ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي، فَقُلْ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ، فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَمَا تَوَارَتْ بِيَدِكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالْآنَ مِنْ قَرِيبٍ، قَالَ: رَبِّ أَدْنِنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَاللهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ، لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَنْبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ»**[١].

وقال ابن حجر: «وقال غيره – أي: غير النووي -: إنما لطمه؛ لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخيره؛ لما ثبت «أنه لم يقبض نبيٌّ حتى يخير»؛ فلهذا لما خَيَّره في المرة الثانية أذعن، قيل: وهذا أولى الأقوال بالصواب، وفيه نظر؛ لأنه يعودُ أصل السؤال؛ فيقال: لم أقدم ملك الموت على قبض نبيِّ الله وأخلَّ بالشرط؟ فيعود الجواب: أن ذلك وقع امتحانًا، وزعم بعضهم أن معنى قوله: «فَقَأَ عَيْنه»؛ أي: أبطل حجته، وهو مردودٌ بقوله في نفس الحديث: «فَرَدَّ اللهُ عَيْنَهُ»، وبقوله: «لَطَمَهُ وَصَكَّهُ»، وغير ذلك من قرائن السياق...، وردَّ الله إلى ملك الموت عينه البشرية؛ ليرجع إلى موسى على كمال الصورة؛ فيكون ذلك أقوى في اعتباره»[٢].

وكذا ذكر المناوي[٣] أن موسى عليه السلام لطم موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءه؛ لكونه لم يخير قبل ذلك[٤].

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢).
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٤٢، ٤٤٣).
(٣) انظر: «فيض القدير» (٥/ ٥٠١).
(٤) «أحوال المحتضر» لمحمد العلي، مجلة الجامعة الإسلامية العدد (١٢٤ – ص: ١٤٣)، و«الموسوعة العقدية – الدرر السنية» (٤/ ١٣٦).



ذكر أحوال بعض السلف عند موتهم

فعن معاوية بن قرة: أن أبا الدرداء اشتكى، فدخل عليه أصحابه؛ فقالوا: ما تشتكي؟ قال: «أشتكي ذنوبي. قالوا: فما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة. قالوا: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: هو أضجعني»[١].

وعن محمد بن ثابت البناني قال: «ذهبتُ أُلَقِّن أبي عند الموت؛ فقال: يا بُنَيَّ خَلِّ عني؛ فإني في وِرْدي السَّابع. كأنه يقرأ ونَفْسُه تخرجُ»[٢].

وعن عبد العزيز بن أبي روَّاد قال: «دخلتُ على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه، فقلتُ: أوصني؛ فقال: اعمل لهذا المضجع»[٣].

وعن حزم القطيعي، قال: دخلنا على مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه؛ فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: «اللّهم إنك تعلم أني لم أكُنْ أحبُّ البقاء في الدنيا لفرْجٍ ولا لبطنٍ»[٤].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٧٢).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٦١).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٦٤).
(٤) رواه أبو حاتم في «الزهد» (٥٠).



المبحث الرابع: حقيقة الرُّوح

١- تعريف الروح:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفها: والروحُ المدبرةُ للبدن التي تفارقه بالموت، هي: الروحُ المنفوخةُ فيه، وهي النفس التي تفارقه بالموت[1].

٢- ذكر الروح في القرآن.

ولكي نتعرف على حقيقة الروح؛ فلابد أن نقف على الآيات التي ذُكرت فيها الروح:

فكلمة «الروح» في القرآن تأتي على عدة أوجه:

١- القرآن: كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

٢- الوحي: كقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[غافر:١٥].

٣- جبريل: كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم:١٧]. وقولِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣].

٤- القوة والثبات والنصرة التي يؤيد الله بها من شاء من عباده المؤمنين: كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٨٩).

كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾[المجادلة:٢٢].

٥- **المسيح ابن مريم:** قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾[النساء:١٧١].

٦- **تطلق الروح ويراد بها ما به حياة الإنسان؛** كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[الإسراء:٨٥]؛ فهي الجزء الذي به تحصلُ الحياة والتحرُّك واستجلابُ المنافع واستدفاع المضار، وهذا هو المقصود في كتابنا هذا[١].

٣- هل للرُّوح كيفيةٌ تُعْلَم؟

لما كانت الرُّوحُ مخلوقةً من جنسٍ لا نظيرَ له في عالم الموجودات؛ فإننا لا نستطيع أن نعرف صفاتها؛ فقد عرفنا الله أنها تصعد وتهبط، وتسمع وتبصر وتتكلَّم إلى غير ذلك، إلا أن هذه الصفات مخالفةٌ لصفات الأجسام المعروفة، فليس صعودها وهبوطها وسمعها وبصرها وقيامها وقعودها من جنس ما نعرفه ونعلمه؛ فقد أخبرنا الرسول الكريم ﷺ أن الروحُ يصعدُ بها إلى السموات العلا، ثم تعاد إلى القبر، ساعةً من الزمن، فقد أخبرنا أنها تنعَمُ أو تعذَّب في القبر، ولا شكَّ أن هذا النعيم على نحوٍ مخالفٍ لما نعلَمُهُ ونعرفُه[٢].

---

(١) «الروح» لابن القيم (ص:٢٤١)، و«مفردات ألفاظ القرآن» للراغب (ص: ٣٦٩)، و«الإيمان باليوم الآخر» للصلابي (ص: ١٥).

(٢) «القيامة الصغرى» د. عمر الأشقر (ص: ٨٧)، و«الإيمان باليوم الآخر» (ص: ١٥).

✍ ٤- هل النفس هي الروح؟

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «لفظ (النفس) و(الروح) و(القلب) و(الفؤاد) ونحو ذلك مما يتنازع الناسُ في معناها؛ إما لاختلاف اصطلاحاتهم، وإما لاختلافهم في المعنى.

فلفظ (النفس) يُراد به تارةً ذاتُ الشيء وعينُه، ويراد به الدَّمُ السَّائل؛ كقول الفقهاء: ليست له نفسٌ سائلة، وقول الشاعر:

تَسيلُ على حَدِّ الظُّباةِ نفوسُنا ... وليستْ على غير الظُّباةِ تَسِيل

ويرادُ به (الرُّوح) التي في الإنسان؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر:٢٧، ٢٨]، ومنه قوله في الحديث: «**اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطمئنَّة كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطيب**»(١).

ويُرادُ بها أيضًا بعضُ صفاتها المذمومة كالهوى المُرْدي؛ فيقال: فلان له نفس، كما يقال فلان له لسان، وفلان له قلب؛ أي: لسان خاصٌّ، وهو القادر على الكلام، وقلب خاص، وهو الذي له حالٌ من معرفةٍ ووجد وصدقٍ، ونحو ذلك؛ فكثير من أهل السلوك يريدون بلفظ (النفس) النفسَ الخاصَّة المذمومة، وقد يقسمون لفظ النفس إلى ثلاثة: أمَّارة ولوَّامة ومطمئنة.

وأما لفظ (الروح)؛ فقد يراد به الرُّوُح التي في الإنسان، وهي النفس التي تُقبض وقت الموت، ولفظ (الروح) و(النفس) بهذا الاعتبار اسمان لذاتٍ واحدةٍ؛ لكن باعتبار صفات متنوعة؛ فتسمى روحًا باعتبار، ونفسًا باعتبار، وإن كانت الذات واحدة»(٢).

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٤/ ٣٧٧)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وقد سبق تخريجه.
(٢) «الرد على الشاذلي» (ص: ١٢٢).

ويقول صاحب كتاب «القيامة الصغرى» (ص: ٨٥): «وقد أخطأ الذين فرقوا بين الروح والنفس واعتقدوا أنهما أمران مختلفان، ومن تأمَّلَ فيما سقناه في بحثنا من نصوص علم النفس هي التي تقبضها الملائكة، وتصعد بها إلى السماء، وتعود بها إلى الجسد، وتسأل، وتنعَّم وتعذَّب، وهي الروحُ أيضًا التي إذا خرجت من الجسد تبعها البصر؛ كما ثبت في الأحاديث.

وهذا المخلوق الذي تكون به الحياة، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحًا ونفسًا، ولا يمنع هذا أن تُطلقَ كلٌّ من الروح والنفس إطلاقات أخرى، يقول ابن تيمية: «لفظ (الروح) و(النفس) يعبَّر بهما عن عدة معان: فيراد بالروح: الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه الساري في العروق، وهو الذي تسميه الأطباء: الروح، ويسمى الروح الحيواني؛ فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه، وقد يراد بلفظ (النفس) الدَّم الذي يكون في الحيوان، كقول الفقهاء: «ماله نَفْس سائلة، وما ليس له نفس سائلة»؛ فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح، وتطلق الروح أيضًا على جبرائيل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣]، وتطلق على القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢].

ويلاحظ شارح الطحاوية أن الروح والنفس وإن أُطلقا على تلك اللطيفة الربانية، إلا أن «غالب ما يسمى نفسًا إذا كانت الروحُ متصلةً بالبدن، وأما إذا أُخذت مجردةً فتسميةُ الروح أغلب عليها».

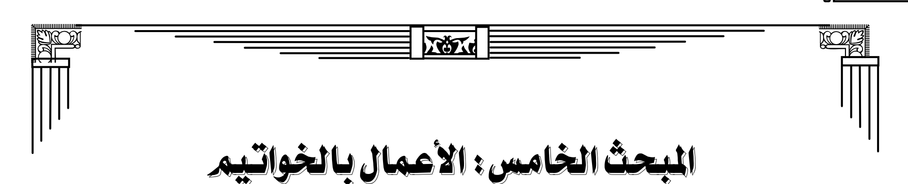
٥- هل تموت الأرواح؟

يقول ابن تيمية: «والأرواحُ مخلوقةٌ بلا شك، وهي لا تُعْدم ولا تَفْنى، ولكن موتها بمفارقة الأبدان، وعند النفخة الثانية تُعادُ الأرواح إلى الأبدان».

وقد تعرَّض شارح الطحاوية لهذه المسألة؛ فقال: «واختلف الناس هل تموت الروح أم لا؟ فقالت طائفة: تموت لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت،.. وإذا كانت الملائكة تموت؛ فالنفوس البشرية أولى بالموت، وقال آخرون: لا تموت الأرواح؛ فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان، قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقةُ الموت، وإن أريدَ أنها تُعْدم وتَفْنى بالكلية؛ فهي لا تموت بهذا الاعتبار؛ بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب.. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[الدخان:٥٦]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد»[1].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٢٧٩)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص: ٤٤٦)، و«القيامة الصغرى» لعمر بن سليمان الأشقر (ص: ١٠١)، و«الموسوعة العقدية» (٤/ ١٧٣).



المبحث الخامس: الأعمال بالخواتيم

إنَّ لخاتمة العبد في هذه الحياة الدنيا شأنًا عظيمًا وَخَطَرًا جليلًا، وذلك لأنَّ ما بعدها متوقفٌ عليها، حيث يكون جزاء العبد وعاقبتُه بحسب خاتمته؛ حُسْنًا أو سُوءًا؛ كما جاء في الحديث الصحيح: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ»**(١).

ولأجل ذلك اشتدَّ قلقُ عبادِ الله الصالحين، وعظُمَ إجلالُهم لشأن الخاتمة، واستداموا الأعمال الصالحة، وأكثروا التضرُّع إلى الله تعالى أن يُثَبِّتهم عليها إلى أن يلقوه، وسَعَوْا لأن يمتثلوا وصيَّة الله لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

وقد روى مسلمٌ في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»** ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»**(٢).

قال بعضُ السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق.

وكان سُفيان يشتدُّ قلقُهُ من السَّوابق والخواتيم؛ فكان يبكي ويقولُ: أخاف أن أكون في أمِّ الكتاب شقيًّا، ويبكي ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت. وهذا من شدة خوفه وورعه رحمه الله. وإلَّا فإن الله هو الكريم الوَدُود، وهو سبحانه الشاكر العليم، لا يُضيعُ عملَ عاملٍ من خلقه.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٣)، ومسلم (١١٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضًا على لحيته، ويقول: يا ربِّ قد علمتَ ساكن الجنة من ساكن النار؛ ففي أيِّ الدارين منزلُ مالك بن دينار؟

ثم إن الخاتمة تتوقف على السوابق؛ فمن كان في حال سعة أمره وفُسحة أجله مُحسنًا؛ فعاقبته بإذن الله الحسنة، ومَن كان على السوء؛ فعاقبته بمثل ذلك، فقد جرت سنة الله أن لا يعلم من العبد حرصًا على الخير وحُبًّا له إلا وفَّقه إليه، وثَبَّتَه عليه، وختم له به.

❑ **فحُسْن الخاتمة هي:** أن يُوفَّق العبد قبل موته للكَفِّ عما يغضبُ الربَّ سبحانه، والتوبة من الذنوب والمعاصي، والإقبال على الطاعات وأعمال الخير، ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة[1].

وقد جاءت الأحاديث تدلُّ على أن الأعمال بالخواتيم:

فعن سهل بن سعد الساعدي، قال: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ المُشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ المُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنْهُمْ، فَقَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**» فَتَبِعَهُ رَجُلٌ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَقَالَ بِذُبَابَةِ سَيْفِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ، فِيمَا يَرَى النَّاسُ، عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ، عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا**»[2].

وفي روايةٍ أخرى: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَعْظَمِ المُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنِ المُسْلِمِينَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا**». فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ

(١) «الخاتمة حسنها وسوؤها» (ص: ١).
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٣)، ومسلم (١١٢).

عَلَى المُشْرِكِينَ، حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَجَعَلَ ذُبَابَةَ سَيْفِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْرِعًا، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ**» قَالَ: قُلْتَ لِفُلاَنٍ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِ**» وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنِ المُسْلِمِينَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ المَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»(١).

قال ابنُ بطال: «في تغييب الله عن عباده خواتيمَ أعمالهم حكمةٌ بالغةٌ وتدبيرٌ لطيفٌ، وذلك أنه لو علم أحدٌ خاتمة عمله لدخل الإعجاب والكسل مَنْ عَلِم أنه يختم له بالإيمان، ومَنْ عَلِم أنه يختم له بالكفر يزداد غيًّا وطغيانًا وكفرًا، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك؛ ليكون العباد بين خوف ورجاء، فلا يعجب المطيع لله بعمل، ولا ييأس العاصي من رحمته، ليقعَ الكلُّ تحت الذل والخضوع والافتقار إليه»(٢).

وقال ابن حجر في «فتح الباري» (ج ١٨ / ص ٤٣٧): «وفيه أن السعيد قد يشقى، وأن الشقي قد يسعد؛ لكن بالنسبة إلى الأعمال الظاهرة، وأما ما في علم الله - تعالى - فلا يتغير. وفيه أن الاعتبار بالخاتمة؛ قال ابن أبي جمرة نفع الله به: هذه التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال؛ لأنهم لا يدرون بماذا يختم لهم. وفيه أن عمومَ مثلِ قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧] مخصوصٌ بمن مات على ذلك، وأن من عمل السعادة وختم له بالشقاء؛ فهو في

(١) رواه البخاريُّ (٦٦٠٧) ومسلم ١٧٩ - (١١٢).
(٢) «شرح صحيح البخاري» (١٠/٢٠٣).

طول عمره عند الله شقي، وبالعكس، وما ورد مما يخالفه يؤول إلى أن يؤول إلى هذا، وقد اشتهر الخلاف في ذلك بين الأشعرية والحنفية، وتمسك الأشاعرة بمثل هذا الحديث، وتمسك الحنفية بمثل قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[الرعد:٣٩]، وأكثرَ كلٌّ من الفريقين الاحتجاج لقوله، والحق أن النزاع لفظي، وأن الذي سبق في عِلْم الله لا يتغير ولا يتبدل، وأن الذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات؛ كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله؛ فلا محو فيه، ولا إثبات، والعلم عند الله. وفيه الحث القوي على القناعة، والزجر الشديد عن الحرص؛ لأن الرزق إذا كان قد سبق تقديره لم يغن التعني في طلبه وإنما شرع الاكتساب؛ لأنه من جملة الأسباب التي اقتضتها الحكمة في دار الدنيا. وفيه أن الأعمال سبب دخول الجنة أو النار، وأما ما قال عبد الحق في «كتاب العاقبة»: إن سوء الخاتمة لا يقع لمن استقام باطنه وصلح ظاهره، وإنما يقع لمن في طويته فساد أو ارتياب، ويكثر وقوعه للمُصِرِّ على الكبائر، والمجترئ على العظائم، فيهجم عليه الموتُ بغتةً؛ فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، فقد يكون ذلك سببًا لسوء الخاتمة، نسأل الله السلامة؛ فهو محمول على الأكثر الأغلب، وفي الحديث: أن الأقدار غالبةٌ، والعاقبة غائبة؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يغترَّ بظاهر الحال، ومن ثَمَّ شُرِع الدعاء بالثبات على الدين وبحسن الخاتمة».

وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ - أَوْ: الرَّجُلَ - يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ**

بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»[(١)].

يخبر الرسولُ ﷺ في هذا الحديث أن الرجل يعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع؛ لقرب أجله ووفاته، فيسبق عليه الكتابُ الأول، الذي كُتب أنه من أهل النار، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وقد دل الحديث السابق ذكره، وهو: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» على أن عمله بعمل أهل الجنة هو فيما يبدو للناس وليس حسنًا، وكذلك الرجل الثاني الذي يعمل بعمل أهل النار، فيمنُّ الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله عند قرب أجله فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها، ومن أحسن العمل في قلبه وظاهره؛ فإن الله تعالى لا يُضيع أجره؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠][(٢)].

وقال ابنُ دقيق العيد: «وأما الحديث: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»؛ فإنه لم يكن عمله صحيحًا في نفسه، وإنما كان رياءً وسمعة..

وقوله ﷺ: «**فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**... إلى قوله: **فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا**» المراد: أن هذا قد يقع في نادرٍ من الناس، لا أنه غالب فيهم، وذلك من لُطْف الله سبحانه وسعة رحمته؛ فإن انقلاب النَّاس من الشر إلى الخير كثيرٌ، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر؛ ففي غاية الندور، ولله الحمد والمنة على ذلك»[(٣)].

وعن عبد الله بن عمر، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: «**إِذَا أَراد اللَّهُ بِقَوْمٍ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٩٤).

(٢) انظر: «فتاوى الشيخ محمد الصالح العثيمين» (١/ ٧١).

(٣) «شرح الأربعين النووية» (ص٢٢، ٢٣).

عَذَابًا، أَصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ»[١].

قال القرطبيُّ في «**المفهم**» **(٤/ ١٦١٧)**: «وقوله: «إِذَا أَراد اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا، أَصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ» يعني: إذا أراد الله أخذ قوم بما ظهر فيهم من المنكر، أهلك جميعهم بعذابٍ يرسله على جميعهم، صالحهم وطالحهم؛ فأما تعذيب الصالح فترفيع له في درجاته، وتكثير لثوابه، ثم يحشر على نيته الصالحة، فتتم له الصفقة الرابحة. وأما تعذيب الطالح؛ فانتقام منه، والمؤخر له أعظم من الواقع به، وهذا نحو مما قالته عائشة رضي الله عنها: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[٢].

وقال ابنُ حجر في «**فتح الباري**»: «قوله: «إِذَا أَراد اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا»؛ أي: عقوبة لهم على سَيِّئِ أعمالهم..

وقوله: «ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ»؛ أي: بعث كُلُّ واحدٍ منهم على حسب عمله إن كان صالحًا فعقباه صالحة، وإلا فسيئة، فيكون ذلك العذاب طُهْرةً للصالحين، ونقمةً على الفاسقين».

أولًا: علامات حسن الخاتمة:

١- أن يكون آخر كلامه من الدنيا (لا إله إلا الله)؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٧١٠٨)، ومسلم (٨٤/ ٢٨٧٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٠).

(٣) رواه أبو داود (٣١١٦)، وقال الحاكم رحمه الله: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» (١٣٥)، وقال الألباني رحمه الله: «صحيح» (١٣٦).

٢- الموت برشح الجبين؛ لقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يَمُوتُ بِعَرَقِ الجَبِينِ**»(١).

٣- الاستشهاد في ساحة القتال من أجل إعلاء كلمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٦٩]، وقوله ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»(٢).

٤- الموت في الغزو في سبيل الله؛ لقوله ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ**»، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ**»(٣).

٥، ٦- الموت بالغرق، وكذلك بالهدم؛ لقوله ﷺ: «**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(٤).

---

(١) رواه الترمذيُّ (٩٨٢)، وقال: «هذا حديث حسن»، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١/٥٠٢) (ح٩٨٢).

(٢) رواه الترمذي (١٦٦٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/٢٤٠) (ح١٦٦٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (ح٣٢١٣).

(٣) رواه مسلم (١٩١٥).

(٤) رواه مسلم (١٩١٤).

٧- الموت بداء البطن؛ لقوله ﷺ في الحديث السابق: «...**وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»(١).

٨-الموت بالطاعون؛ لقوله ﷺ: «**الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**»(٢).

٩- الموت رباطًا في سبيل الله تعالى؛ لحديث: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**»(٣).

١٠- الثناء بالخير على الميت في جمع من المسلمين الصادقين ذوي الصلاح والعلم؛ لقوله ﷺ: «**أَيُّمَا مُسْلِمٍ، شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ**» فَقُلْنَا: وَثَلاَثَةٌ، قَالَ: «**وَثَلاَثَةٌ**» فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ، قَالَ: «**وَاثْنَانِ**» ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الوَاحِدِ(٤).

١١- أن يموت مُحْرِمًا بحج؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا كان واقفًا مع رسول الله ﷺ بعرفه فأوقصته راحلته وهو محرم فمات؛ فقال رسول الله ﷺ: «**اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّ اللهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا**»(٥).

---

(١) سبق تخريجه في الفقرة السابقة.

(٢) رواه البخاري (٥٧٣٢)، ومسلم (١٩١٦).

(٣) رواه مسلم (١٩١٣).

(٤) رواه البخاري (٢٦٤٣).

(٥) رواه مسلم (١٢٠٦)، وانظر: «أحوال المحتضر» (ص: ٤٨)، وأيضًا: «أحاديث حياة البرزخ في كتب التسعة جمعًا وتخريجًا ودراسةً».

✍ثانيًا: أسباب حسن الخاتمة:

هناك أسباب يُستدلُّ بها على حسن الخاتمة، منها:

١- إقامة التوحيد لله (جلَّ وعلا):

إن إقامة التوحيد في قلب المسلم يجني ثماره في حياته وعند موته وفي قبره ويوم حشره، ويكون سببًا في دخول جنات ربه ورضوانه؛ كما قال ﷺ: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»(١).

٢- الاستقامة:

الاستقامة أعظم كرامة، وسبب عظيم في حُسن الخاتمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣].

قال الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١١١): «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٧٨١): «أي: إن الذين أقروا بربهم وشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته وداموا على ذلك، و﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من كل شر أمامهم، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم».

٣- التقوى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، وحق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذْكَر فلا يُنسى، وأن

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥)، ومسلم (٢٦٣).

يُشْكَر فلا يكفر[1].

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين من يخافه ويحذره وقاية تقيه منه؛ فتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه[2]؛ فالتقوى سبب للخروج من كل ضيق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[الطلاق:٢، ٣].

ولا شك أن العبد عند السكرات يكون في ضيق وشدة؛ فتكون التقوى سببًا لنجاته، والتقوى سببٌ لتيسير السكرات على العبد المؤمن؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾[الطلاق:٤]، والتقوى سببٌ للنجاة من المهالك؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾[مريم:٧١].

وهي سببٌ لدخول الجنة؛ قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾[مريم:٦٣].

٤- الصدق:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩]. وقال ﷺ: «**وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**»[3].

فالصدق أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، من لم يكن معه الصدق فهو من المنقطعين الهالكين، ومن كان معه الصدق أوصله إلى فضل ذي الجلال،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٥٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٠٧).

وكان سببًا في حُسن خاتمته وطيب المآل[١].

٥- التوبة:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم:٨].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[٢].

٦- الدعاء:

كان من دعاء الصالحين أن يتوفاهم الله حين انقضاء آجالهم، وهم متمسكون بالطاعات، ملازمون لها، ومجانبون للمعاصي، مفارقون لها، مصاحبون للأبرار، معدودون في زمرتهم، مُجافُون للفجَّار، حائدون عن صحبتهم، وفي ذلك يقول عنهم المولى ﷻ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران:١٩٣].

٧- الإكثار من ذكر الموت:

ذكر الموت يُنَغِّصُ اللذات، ويُحَقِّر الشهوات، ويجعل الآخرة نُصْب العين، ومشاهدةُ المحتضرين والنظر إلى سكراتهم ونزعاتهم ومعالجتهم في طلوع الروح وشدة كربهم أعظمُ عبرة، وتغسيلُ الموتى يَرِقُّ به القلب، وتذرف العينان، ورؤيةُ

(١) «سكب العبرات» (١/ ٦١).

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٧٦).

القبور وسكونها تعجِّل بالتوبة؛ فتكون سببًا لحُسْن الخاتمة[1].

٨- البعد عن أسباب سوء الخاتمة:

وأسباب سوء الخاتمة كثيرة، نذكر منها على الإجمال:

١- فساد المعتقد.

٢- تسويف التوبة.

٣- عدم الاستقامة على الطاعة.

٤- طول الأمل.

٥- حب الدنيا.

٦- مخالفة الباطن الظاهر.

٧- تعلق القلب بغير الله.

٨- سوء الظن بالله.

٩- الإصرار على الذنوب والمعاصي.

١٠- نسيان الآخرة وعدم ذكر الموت.

١١- الظلم.

١٢- الأمن من مكر الله ﷻ.

١٣- النفاق.

١٤- اليأسُ من رحمة الله.

(١) «سكب العبرات» (١/ ٦٤).

١٥- الانتحار.

١٦- مصاحبة أهل السوء.

١٧- عدم الاستقامة على الطاعة.

١٨- والرياء وحب السمعة وغير ذلك من العلامات[(١)].

ثالثًا: لا تَمُتْ إلا وأنت تُحسن الظن بالله:

كُلَّما كان العبدُ حَسَنَ الظن بالله، حَسَنَ الرجاء له، صادِقَ التوكُّل عليه؛ فإن الله لا يُخَيِّب أملَه فيه ألبتة؛ فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل، وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة؛ فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله، ورجائه له، وحسن ظنه به؛ فيتوفاه على ما يظنه بربه، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥].

قال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٦٢٦): «يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب؛ فإنه آت، وكلُّ آت إنما هو قريب، فتزوَّد للقائه، وسِرْ نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملًا الوصول إليه، ولكن، ما كُلُّ من يَدَّعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه؛ فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات؛ فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح».

وقال القاسميُّ في «تفسيره» (٧/ ٥٤٦): «﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته؛ فإن أجل الله وهو الموت لآت؛ أي: فليبادر ما يصدق رجاءه، ويحقق أمله من الثبات والتواصي بالحق والصبر والرغبة فيما عنده

---

(١) انظر: «رحلة إلى الدار الآخرة» (ص: ٥٤)، و«سكب العبرات» (١/ ٦٤)، و«الإيمان باليوم الآخر» (ص: ٤٠)، و«أحوال المحتضر» (ص: ١٤١)، و«الاستعداد للموت» (ص: ١٣٠).

تعالى. أو المعنى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، من كلِّ من صدق في إيمانه، وأخلص في يقينه؛ فاعلم أن أجل الله لآت. وهو الوقت الذي جعله أجلًا وغايةً لظهور النصر والفتح، وعلو الحق، وزهوق الباطل؛ أي: فلا يستبطئنَّهُ.

فإنه آتٍ بوعد الله الحق، وقولِهِ الصدق. ولم أَرَ من ذكره، ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق - والله أعلم - ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم».

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء:٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾[الزُّمَر:٩].

ولا يجتمع الخوف والرجاء في قلب العبد عند سكرات الموت ومفارقة الحياة إلا أعطاه الله ما يرجوه من الرحمة، وآمنه مما يخافه من العقوبة والمغفرة[(١)].

ولكن ينبغي أن يُغَلَّب عند الموت جانبُ الرجاء على الخوف، وأن الله تعالى يرحمه ويعفو عنه، ويتجاوز عن سيئاته، وذلك حُسْن الظن الذي عناه النبيُّ ﷺ في حديث جابر بن عبد الله الأنصارى قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: **«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»**[(٢)].

---

(١) «الثبات على دين الله» (١/ ١٠٣٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٥).

قال أبو سليمان الخطابي: «إنما يحسن بالله الظن مَنْ حَسُن عمله؛ فكأنه قال: أحسنوا أعمالكم يحسن ظنكم بالله؛ فإن من ساء عمله ساء ظنه، وقد يكون أيضًا حسن الظن بالله من ناحية الرجاء، وتأميل العفو، والله جواد كريم».

وقال النووي: «قوله ﷻ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»؛ قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه. قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح؛ فإذا دنت أماراتُ الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذَّر ذلك أو معظمه في هذا الحال؛ فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له، ويؤيده الحديث المذكور بعده: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»(١)، ولهذا عقبه مسلم للحديث الأول قال العلماء: معناه يبعث على الحالة التي مات عليها، ومثله الحديث الآخر بعده: «ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نيَّاتِهم»(٢).

وذلك عند انقطاع العمل، وتبدُّد الأملِ في بقاء وحياة، ولم يتبقَّ له إلا التعلق بعفو الله ورحمته، وعظيم فضله، ورجاء كرمه، ورحمة الله تسبق غضبه، والعفو أحب إليه من الانتقام(٣).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّ الله ﷻ قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»**(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

(٢) «شرح مسلم» (١٧/ ٢١٠).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥، ٤٦)، و«الثبات على دين الله» (١/ ١٠٣٩)، وانظر: «الإيمان باليوم الآخر» (ص: ٤٥).

(٤) **حديث صحيح لغيره:** أخرجه أحمد (٩٠٧٦)، وابن حبان (٦٣٩) وغيره.

قال المناوي في «فيض القدير»[1]: «قال الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ» مقتضى ظنه «وَإِنْ ظَنَّ» بي «شَرًّا»؛ أي: أني أفعل به شرًّا «فَلَهُ» ما ظنه؛ فالمعاملة تدور مع الظن؛ فإذا أحسن ظنه بربه وفى له بها أمل وظن، والتطير سوء الظن بالله، وهروب عن قضائه؛ فالعقوبة إليه سريعة، والمقت له كائن، ألا ترى إلى العصابة التي فرَّت من الطاعون كيف أماتهم؟ قال الحكيم الترمذي: الظن ما تردد في الصدر، وإنما يحدث من الوهم، والظن هاجسة النفس، وللنفس إحساس بالأشياء؛ فإذا عرض أمرٌ دبر لها الحس شأن الأمر العارض، فما خرج لها من التدبير؛ فهو هواجس النفس؛ فالمؤمن نور التوحيد في قلبه؛ فإذا هجست نفسه لعارض أضاء النور؛ فاستقرت النفس فاطمأن القلب فحسن ظنه؛ لأن ذلك النور يريه من علائم التوحيد وشواهده ما تسكن النفس إليه وتعلمه أن الله كافيه وحسبه في كل أموره وأنه كريم رحيم عطوف به، فهذا حُسْن الظن بالله، وأما إذا غلب شرَهُ النفسِ وشهواتُها فيفور دُخَان شهواتها كدخان الحريق؛ فيُظْلم القلب وتَغْلُب الظلمة على الضوء فتحيى النفس بهواجسها وأفكارها وتضطرب ويتزعزع القلب عن مستقره وتفقد الطمأنينة وتعمى عين الفؤاد لكثرة الظلمة والدخان؛ فذلك سوء الظن بالله؛ فإذا أراد الله بعبد خيرًا أعطاه حسن الظن بأن يزيده نورا يقذفه في قلبه ليقشع ظلمة الصدر كسحاب ينقشع عن ضوء القمر ومن لم يمنح ذلك فصدره مظلم لما أتت به النفس من داخل شهواتها، والعبد ملوم على تقوية الشهوات من استعمالها فإذا استعملها فقد قواها، ككانون: كلما ألقيت فيه حطبًا ازداد لظمًا ودخانًا».

ويقول ابنُ القيم: «ولا ريب أن حُسْن الظن إنما يكون مع الإحسان؛ فإن المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته،

---

(١) (٤٩١/٤).

وأما المسيءُ المصرُّ على الكبائر والظلم والمخالفات؛ فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه.. ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا؛ فإن المسيء مستوحشٌ بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له.. وقد قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السرُّ من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فُصِّلَت:٢٣]؛ فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءةً لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن.. فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاقي الله، وأن الله يسمع ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسؤول عن كلِّ ما عمل، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره، مبطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خدع النفوس، وغرور الأماني»(١).

رابعًا: العبد يبعث على ما مات عليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف:٢٩، ٣٠].

قال السمعانيُّ في «تفسيره» (٢/ ١٧٦): «﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ يعني: تعودون فرادى بلا أهل ولا مال، كما خلقكم فرادى بلا أهل ولا مال، وهذا معنى قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام:٩٤] قال الزجاج: معناه: إن إعادتكم أحياء كخلقكم ابتداء، كلاهما عليَّ هينٌ، والصحيح: أن المراد به: أنه كما خلقكم أشقياء وسعداء، ومؤمنين

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص١٤).

وكافرين، تعودون كذلك؛ وعليه دل ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ﴾[الأعراف:٣٠]؛ أي: فريقًا هداهم الله، وفريقًا أضلهم الله تعالى؛ فوجبت عليهم الضلالة، وقد صحَّ الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: حدثني الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - يعني رسول الله -: «**إِنَّ الرجل لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى لاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**». انتهى.

وقال البغويُّ في «**تفسيره**» **(٢/ ١٨٧):** «كما بدأكم تعودون؛ قال ابن عباس: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا؛ كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾[التغابن:٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا؛ قال جابر: يبعثون على ما ماتوا عليه».

وعن جابر قال: سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»(١).

---

(١) رواه مسلم (٨٣/ ٢٨٧٨)، وغيره.

وذكر ابنُ حبان الحديث بعنوان (١٦/ ٣٠٤)؛ فقال: ذكر الإخبار عن وصف ما يحشر الناس عليه مما انعقدت عليه ضمائرهم.

وذكره البيهقي في «القضاء والقدر» (ص: ١٦٣)؛ فقال: باب ذكر البيان أن العبد يبعث على ما مات عليه؛ قال الله عز وجل: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾.

وقال السيوطي في «شرحه على مسلم» (٦/ ٢١١): «يبْعَث كل عبد على مَا مَاتَ عَلَيْهِ»؛ أَي: على الْحَالة الَّتِي مَاتَ عَلَيْهَا».

وقال صاحب شرح «الجامع الصغير» (١١/ ١٩٤): «يبْعَث كل عبد» من ذكر أو أنثى. «على مَا مَاتَ عَلَيْهِ» من خيرٍ وشرٍّ».

وعن ابن عباس، ﭫ، قال: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ، إِذْ وَقَعَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَوَقَصَتْهُ - أَوْ قَالَ: فَأَوْقَصَتْهُ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلاَ تُحَنِّطُوهُ، وَلاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلَبِّيًا»**[(١)] .

قال الشاعر[(٢)]:

تــزوَّد مــن التقــوى فإنــك لا تــدري ... إذا جَــنَّ ليــلٌ هــل تعــيشُ إلى الفجــر
فكــم مــن عَــرُوس زيَّنوهــا لزوجهــا ... وقــد أُخــذت أرواحهــم ليلــة القــدر
وكــم مــن صــغار يُرتجــى طــول عمــرهم ... وقــد أُدخلــت أرواحُهــم ظلمــة القــبر
وكــم مــن ســليمٍ مــات مــن غــير علَّــة ... وكــم مــن ســقيمٍ عــاش حينــًا مــن الــدهر
وكــم مــن فتــى يمســي ويصــبح لاهيــًا ... وقــد نُســجت أكفانُــه وهــو لا يــدري

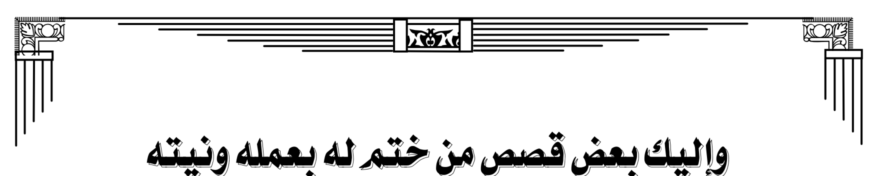
❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري (١٢٦٥)، ومسلم (١٢٠٦).

قال محمد فؤاد عبد الباقي: «(خر رجلٌ) أي: سقط (فوقص) أي: دقت عنقه يقال وقصت الناقة براكبها وقصا من باب وعد إذا رمت به فدقت عنقه (ولا تخمروا) التخمير التغطية (ملبيًا) في «المصباح»: لبى الرجل تلبية إذا قال لبيك ولبى بالحج كذلك، ومعنى: يبعثه يوم القيامة ملبيا، أي: حال كونه قائلًا لبيك؛ أي: يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها؛ ليكون ذلك علامة لحَجِّه، كما يجيء الشهيد يوم القيامة ودمه يسيل».

(٢) «موسوعة الشعر الإسلامي» (٣٨٣/ ١)، و«موسوعة خطب المنبر» (١/ ٤٤٦٦).



وإليك بعض قصص من ختم له بعمله ونيته

قصة صاحب حمام منجاب

روى البيهقيُّ في «الشعب»(١) بإسناده إلى الرَّبِيعِ بْن بَرَّةَ، وَكَانَ عَابِدًا بِالْبَصْرَةِ، يَقُولُ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ بِالشَّامِ، وَقِيلَ لِرَجُلٍ: يَا فُلَانُ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، قَالَ: اشْرَبْ وَاسْقِنِي، وَقِيلَ لرجل بِالأَهْوَازِ: يَا فُلاَنُ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ده يا زده ده دوازده، وَقِيلَ لِرَجُلٍ هَهُنَا بِالْبَصْرَةِ: يَا فُلاَنُ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ لَعِبَتْ ... كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذَا رَجُلٌ اسْتَدَلَّتْهُ امْرَأَةٌ إِلَى الْحَمَّامِ، فَدَلَّهَا إِلَى مَنْزِلٍ، فَقَالَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ.

قال القرطبي في «التذكرة»(٢): «وذكر أبو محمد عبد الحق هذه الحكاية، في كتاب العاقبة له؛ فقال: وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابه يشبه باب حمام، فمرت به جارية لها منظر، وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب.

وأشار إلى داره فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسه معه في دار وليس بحمام علِمَتْ أنه خدَعَها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة

(١) (٨/ ٤٨٥)، وهي كذلك في «المحتضرين» لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٧).
(٢) (ص: ١٨٩).

وفي تلك الدار وقالت له: يصلح معنا ما نطيب به عيشنا، وتقر به أعيننا؛ فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين، وبكل ما تشتهين، فخرج وتركها في الدار ولم يقفلها، وتركها محلولة على حالها ومضى، فأخذ ما يصلح لهما ورجع، ودخل الدار فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثرًا، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها، والجزع عليها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة، وهو يقول:

يا رب قائلة يومًا وقد لغبت أين الطريق إلى حمام منجاب

وإذا بجارية تجاوبه من طاق، وهي تقول:

هلَّا جعلت لها لمَّا ظفرت بها حِرْزاً على الدار أو قُفْلاً على الباب

فزاد هيمانه، واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتَّى كان مِنْ أمرِه ما ذُكِر.

فنعوذ بالله من المحن والفتن».

وهذه قصة لفتاة ماتت على الطاعه

روى ابنُ الجوزي في «ذم الهوى»[(١)] بإسناده إلى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ الْعَابِدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ عِنْدَنَا بِالْكُوفَةِ شَابٌّ يَتَعَبَّدُ لازِمٌ لِلْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، لَا يَكَادُ يَخْلُو مِنْهُ وَكَانَ حَسَنَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْقَامَةِ، حَسَنَ السَّمْتِ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَعَقْلٍ، فَشُغِفَتْ بِهِ، وَطَالَ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَفَتْ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ وَهُوَ يُرِيدُ مَنْزِلَهُ فَقَالَتْ لَهُ: يَا فتى اسْمَعْ مِنِّي كَلِمَاتٍ أُكَلِّمُكَ بِهَا ثُمَّ اعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَمَضَى وَلَمْ يُكَلِّمْهَا ثُمَّ وَقَفَتْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِهِ وَهُوَ يُرِيدُ مَنْزِلَهُ فَقَالَتْ لَهُ: يَا فَتَى اسْمَعْ مِنِّي كَلِمَاتٍ أُكَلِّمُكَ بِهَا فَأَطْرَقَ مَلِيًّا وَقَالَ لَهَا: هَذَا مَوْضِعُ تُهْمَةٍ وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لِلتُّهْمَةِ مَوْضِعًا.

(١) (ص: ٥١٢)، وهو في «مصارع العشاق» لأبي محمد السراج القارئ (١/٤٩، ٥٠).

فَقَالَتْ لَهُ: وَاللَّهِ مَا وَقَفْتُ مَوْقِفِي هَذَا جَهَالَةً مَنِّي بِأَمْرِكَ، وَلَكِنْ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَشَرَّفَ الْعُبَّادُ إِلَى مِثْلِ هَذَا مِنِّي وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى أَنْ لَقِيتُكَ فِي هَذَا الأَمْرِ بِنَفْسِي، لِمَعْرِفَتِي أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْ هَذَا عِنْدَ النَّاسِ كَثِيرٌ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ الْعُبَّادِ فِي مِثَالِ الْقَوَارِيرِ أَدْنَى شَيْءٍ يُعِيبُهُ، وَجُمْلَةُ مَا أُكَلِّمُكَ بِهِ أَنَّ جَوَارِحِي كُلَّهَا مَشْغُولَةٌ بِكَ فَاللَّهَ اللَّهَ فِي أَمْرِي وَأَمْرِكَ.

قَالَ: فَمَضَى الشَّابُّ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُصَلِّي فَلَمْ يَعْقِلْ كَيْفَ يُصَلِّي، فَأَخَذَ قِرْطَاسًا وَكَتَبَ كِتَابًا ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ فَإِذَا بِالْمَرْأَةِ وَاقِفَةً فِي مَوْضِعِهَا فَأَلْقَى إِلَيْهَا الْكِتَابَ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ.

وَكَانَ الْكِتَابُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اعْلَمِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا عُصِيَ حَلِمَ، فَإِذَا عَاوَدَ الْعَبْدُ الْمَعْصِيَةَ سَتَرَهُ، فَإِذَا لَبِسَ لَهَا مَلابِسَهَا غَضِبَ اللَّهُ ﷻ لِنَفْسِهِ غَضْبَةً تَضِيقُ مِنْهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ فَمَنْ ذَا يُطِيقُ غَضَبَهُ؟

فَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتِ بَاطِلًا؛ فَإِنِّي أُذَكِّرُكِ يَوْمًا تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَصِيرُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ، وَتَجْثُو الأُمَمُ لِصَوْلَةِ الْجَبَّارِ الْعَظِيمِ وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ ضَعُفْتُ عَنْ إِصْلاحِ نَفْسِي فَكَيْفَ بِإِصْلاحِ غَيْرِي، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتِ حَقًّا فَإِنِّي أَدُلُّكِ عَلَى طَبِيبٍ هُوَ أَوْلَى بِالْكُلُومِ الْمُمْرِضَةِ وَالْوِجَاعِ الْمُرْمِضَةِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَاقْصُدِيهِ عَلَى صِدْقِ الْمَسْأَلَةِ فَإِنِّي مُتَشَاغِلٌ عَنْكِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر:١٨-١٩]!!

فَأَيْنَ الْمَهْرَبُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ؟!

ثُمَّ جَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ فَوَقَفَتْ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ فَلَمَّا رَآهَا مِنْ بَعِيدٍ أَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَى مَنْزِلِهِ لِئَلا يَرَاهَا.

فَقَالَتْ: يَا فَتَى لَا تَرْجِعْ فَلا كَانَ الْمُلْتَقَى بَعْدَ هَذَا أَبَدًا إِلا بَيْنَ يَدَي اللَّهِ ﷻ، وَبَكَتْ بُكَاءً كَثِيرًا ثُمَّ قَالَتْ: أَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ قَلْبِكَ أَنْ يُسَهِّلَ مَا قَدْ عُسِّرَ مِنْ أَمْرِكَ.

ثُمَّ تَبِعَتْهُ فَقَالَتِ: امْنُنْ عَلَيَّ بِمَوْعِظَةٍ أَحْمِلُهَا عَنْكَ وَأَوْصِنِي بِوَصِيَّةٍ أَعْمَلُ عَلَيْهَا!

فَقَالَ لَهَا الْفَتَى: «أُوصِيكِ بِحِفْظِ نَفْسِكِ مِنْ نَفْسِكِ، وَأُذَكِّرُكِ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[الأنعام:٦٠]».

قَالَ: فَأَطْرَقَتْ وَبَكَتْ بُكَاءً أَشَدَّ مِنْ بُكَائِهَا الأَوَّلِ ثُمَّ أَفَاقَتْ ثُمَّ لَزِمَتْ بَيْتَهَا وَأَخَذَتْ فِي الْعِبَادَةِ.

قَالَ: فَكَانَتْ إِذَا جَهِدَ بِهَا الأَمْرُ تَدْعُو بِكِتَابِهِ فَتَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهَا فَيُقَالُ لَهَا: وَهَلْ يُغْنِي هَذَا شَيْئًا؟ فَتَقُولُ: وَهَلْ لِي دَوَاءٌ غَيْرُهُ.

وَكَانَ إِذَا جَنَّ عَلَيْهَا اللَّيْلُ قَامَتْ إِلَى مِحْرَابِهَا فَلَمْ تَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَتْ كَمَدًا.

فَكَانَ الْفَتَى يَذْكُرُهَا ثُمَّ يَبْكِي عَلَيْهَا فَيُقَالُ لَهُ: مِمَّ بُكَاؤُكَ وَأَنْتَ أَيَّسْتُهَا؟ فَيَقُولُ: إِنِّي ذَبَحْتُ طَمَعِي مِنْهَا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ وَجَعَلْتُ قَطْعَهَا ذَخِيرَةً لِي عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَإِنِّي لأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ ﷻ أَنْ أَسْتَرِدَّ ذَخِيرَةً ادَّخَرْتُهَا عِنْدَهُ.

❀ ❀ ❀



المبحث السادس

باب بكاء السموات والأرض على المؤمن

قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾[الدخان:٢٥-٢٩].

قال الطبريُّ في «تفسيره» (٢٢/ ٣٣): «يقول تعالى ذِكْرُه: فما بكت على هؤلاء الذين غرقهم الله في البحر، وهم فرعون وقومه، السماء والأرض، وقيل: إن بكاء السماء حمرة أطرافها... وقيل: إنما قيل ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ لأن المؤمن إذا مات، بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا[1]، ولم تبكيا على فرعون وقومه، لأنه لم يكن لهم عملٌ يصعد إلى الله صالح، فتبكي عليهم السماء، ولا مسجد في الأرض، فتبكي عليهم الأرض».

وقال البغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢): «﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقده، ولا لهم على الأرض عمر صالح فتبكي الأرض عليه».

(١) لم يثبت في ذلك خبرٌ مرفوعٌ، والله أعلم. فقد أخرجه الترمذي (٣٢٥٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٤٥٩) عن أنس مرفوعًا، وفيه يزيد الرقاشي وغيره. وإنما الأخبار في ذلك موقوفة على عددٍ من الصحابة والتابعين؛ كما في «تفسير الطبري» (تفسير الدخان/٢٩)، و«العظمة» لأبي الشيخ (١٧١٤/٥)، و«المستدرك» (٤٨٧/٢)، و«الشعب» للبيهقي (٥٥٩/٤)، و«تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (رقم: ٣٢٧).

وقال ابن عطية في «تفسيره» (٥/ ٧٣): «نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون، فاقتضى أن للسماء والأرض بكاءً.

واختلف المتأولون في معنى ذلك؛ فقال علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وابن جبير: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحًا، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله، قالوا: فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله؛ فهذا معنى الآية. وقال السدي وعطاء: بكاء السماء: حمرة أطرافها. وقالوا: إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي، وكان ذلك بكاء عليه، وهذا هو معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد: والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾[إبراهيم:٤٦] على قراءة من قرأ «لتزول» بكسر اللام ونصب الفعل وجعل إِنْ نافية،...لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه،.. فيقال في تحقير: مات فلان، فما خشعت الجبال، ونحو هذا».

وقال ابنُ كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٥٣): «وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فَقَدتْهُم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٧٧٣): «﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض؛ أي: لم يحزن عليهم ولم يؤس على فراقهم؛ بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتى السماء والأرض؛ لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين».

وقال الشيخ الفوزان في كتابه «أحكام حضور المساجد» (ص: ١٤٦): «وقد ذكر العلماء حكمةً أخرى: وهي تكثير مواضع العبادة، نسب ذلك الشوكانيُّ إلى البخاري والبغوي؛ لأن مواضع العبادة، تشهد للعابد؛ أخذًا من عموم قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: أن الأرض تبكي على صاحب الطاعة، وكذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[الزلزلة:٤]؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها، من خيرٍ وشرٍّ؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم. والله أعلم».

وقال الشيخ مصطفى العدوي في «تفسيره» (٨٨/ ٢): «قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ فدل ذلك على أنَّ السماء لها بكاءٌ.

أي: تبكي على أهل الصلاح الذين كانت ترفع أعمالهم الصالحة من أبواب السماء؛ فإذا ماتوا انقطعت الأعمال الصالحة فبكت عليهم السماء، أما أهل الفجور والعصيان؛ فلا تبكي عليهم السماء».

المبحث السابع: تمني الموت

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «**لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»(٢).

وعن قيس بن أبي حازم، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى خَبَّابٍ، نَعُودُهُ، وَقَدْ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَّاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّا أَصَبْنَا مَا لاَ نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ، وَلَوْلاَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ»(٣).

وقال النووي: «في الحديث التصريح بكراهة تمني الموت لضرٍّ نزل به من فاقة أو محنة بعدو ونحوه من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضررا أو فتنة في دينه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث، وقد فعله خلائق من السلف بذلك، وفيه أن من خالف فلم يصبر على الضر وتمنى الموت لضر نزل به فليقل الدعاء المذكور. قلت: ظاهر الحديث المنع مطلقا والاقتصار على الدعاء مطلقا، لكن الذي قاله

---

(١) رواه البخاري (٧٢٣٥)، ومسلم (٢٦٨٢).
(٢) رواه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).
(٣) رواه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٢٦٨١).

الشيخ لا بأس به لمن وقع منه التمني ليكون عونا على ترك التمني»[(١)].

قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن النبيَّ ﷺ نهى عن الدعاء بالموت؛ بل نهى عن تمني الموت، وإن لم يدع الإنسان لضر نزل به، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً، فاقْبِضنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»؛ فالمعنى: أنه يسأل الله أن يقبضه قبل أن يفتن، لا أن يعجل في قبضه، ومنه أيضًا قول مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[مريم:٢٣] لم تدعو على نفسها بتعجيل الموت، ولكنها تمنت أنها لم يحصل لها هذا الشيء قبل موتها، مثل أن يقول القائل: ليتني مت ولم أشاهد هذا الشيء، فليس المعنى: تعجيل الموت، ولكن يحبُّ أنه مات سالمًا منه، وكذلك يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]؛ فهو دعاءٌ بأن يتوفاه الله على الإسلام.

س: هل يجوز أن يقولَ أحدُنَا: اللَّهم توفَّني قبل أن تجعلني محتاجًا لأحدٍ من الناس؟

ج: نعم، لا بأس، حتى في الدنيا؛ لأن معناه: اللَّهم أغنني عن الخلق حتى الموت.

س: هل يجوز أن يقول الإنسان – وقد رأى فتنًا فخشي على نفسه – أن يقول: اللَّهم اقبضني إليك غير مفتون؟

ج: نعم؛ فهل هذا فيه تمنٍّ للموت؟ كلَّا، اقبضني غير مفتون؛ أي: ولو بقيت في هذه الفتن، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إنما السَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَن ابتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا»[(٢)].

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (ج ٢٠ / ص ٢٧٩).
(٢) «شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري» (ص: ٢٨).

وقد سئل الشيخ ابن العثيمين – أيضًا – عن حكم تمني الموت؟ فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بقوله: «إن تمنى الإنسان الموت لضرٍّ نزل به وقع فيما نهى عنه رسول الله ﷺ؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»؛ فلا يحلُّ لأحدٍ نزل به ضرٌّ أو ضائقةٌ أو مشكلةٌ أن يتمنَّى الموت؛ بل عليه أن يصبر ويحتسب الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينتظر الفرج منه؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»[1]. وليعلم المصابُ بأيِّ مصيبةٍ أن هذه المصائب كفارة لما حصل له من الذنوب؛ فإنه لا يصيب المرءَ المؤمنَ همٌّ ولا غمٌّ ولا أذى إلا كفَّر اللهُ به عنه، حتى الشوكة يشاكها. ومع الصبر والاحتساب ينال منزلة الصابرين، تلك المنزلة العالية التي قال الله تعالى في أهلها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥،١٥٦].

وكون هذه المرأة لا ترى حلًّا لمشكلاتها إلا بالموت أعتبر أن ذلك نظرٌ مخطئ؛ فإن الموت لا تنحل به المشكلات؛ بل ربما تزدادُ به المصائب، فكم من إنسان مات وهو مصابٌ بالمشكلات والأذايا، ولكنه كان مسرفًا على نفسه، لم يستعتب من ذنبه، ولم يتب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فكان في موته إسراعٌ لعقوبته، ولو أنه بقي على الحياة، ووفقه الله تعالى للتوبة والاستغفار، والصبر، وتحمل المشاق، وانتظار الفرج؛ لكان في ذلك خيرٌ كثيرٌ له؛ فعليك أيتها السائلة أن تصبري وتحتسبي وتنتظري الفرج من الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في كتابه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشَّرح:٥،٦].

---

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في «المسند» (٢٨٠٣)، وعبد بن حميد في «المسند» (٦٣٦) وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والنبيُّ ﷺ يقول فيما صحَّ عنه: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**». والله المستعان»[1].

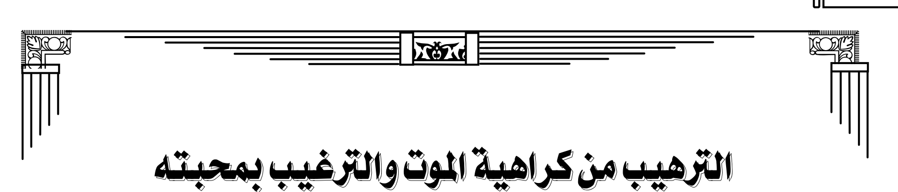
وقال الشيخ مصطفى العدوي: «...ولكن إذا خشي الشَّخْصُ على نفسه الفتنة في الدين؛ فله أن يتمنى الموت حينئذٍ؛ فقد قالت مريم عليها السلام: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[مريم:٢٣]، وقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**وَإِذَا أَرَدْتَ بقوم فِتْنَةً، أَنْ تَقْبِضَنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**»، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»، وقال سحرة فرعون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾[الأعراف:١٢٦]، وقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ**»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١٧/ ٦٠).

(٢) «سلسلة التفسير» للعدوي (٣٠/ ٩).



الترهيب من كراهية الموت والترغيب بمحبته

عن عبادة بن الصامت عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**»(١).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي، أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَإِذَا كَرِهَ لِقَائِي، كَرِهْتُ لِقَاءَهُ**»(٢).

قال ابنُ الأثير في «النهاية»: «المراد «بلقاء الله» هنا: المصير إلى الدار الآخرة، وطلبُ ما عند الله، وليس الغرضُ به الموتَ؛ لأن كلًّا يكرهُهُ؛ فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها كَرِه لقاء الله؛ لأنه إنما يصل إليه بالموت»(٣).

وعن فضالة بن عبيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِكَ وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُكَ، فَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ، وَسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ، وَأَقْلِلْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ وَيَشْهَدْ أَنِّي رَسُولُكَ، فَلَا تُحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ، وَلَا تُسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ،**

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣ - ٢٦٨٦).

(٢) رواه البخاري (٧٥٠٤)، ومسلم (٢٦٨٥).

(٣) انظر: «الفتح» (١١/ ٣٦٠).

وَأَكْثِرْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا»[١].

وقال المناوي: «**اللَّهُمَّ مَنْ آمَنَ بِكَ**»؛ أي: صدق بأنك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك «**وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُكَ**» إلى الثقلين «**فَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ، وَسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ**»؛ فيتلقاك بقلب سليم، وخاطر مُنْشرِح، ولا يَنْهمك في شيء من قضائك، ويعلم أنه ما من شيء قدرته إلَّا وله وفيه خيور كثيرة دينية، فيحسن ظنه بك، «**وَأَقْلِلْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا**»؛ أي: من زهرتها وزينتها؛ ليتجافى بالقلب عن دار الغرور، ويميل به إلى دار الخلود «**وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ وَيَشْهَدْ أَنِّي رَسُولُكَ، فَلَا تُحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاءَكَ، وَلَا تُسَهِّلْ عَلَيْهِ قَضَاءَكَ، وَأَكْثِرْ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا**»، وذلك هو غاية الشقاء؛ فإن مواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاجٍ ببلاءٍ ومصيبةٍ يورثُ طمأنينةَ القلبِ إلى الدنيا وأسبابها حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلْبُهُ عن الدنيا، ولم يَسْكُن إليها، ولم يأنس بها؛ فتصير كالسجن له، وخروجه منها غاية اللذة كالخلاص من السجن»[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم «الزهد» (٢١١)، وابن حبان «صحيحه» (٢٠٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٠٨)(١٨/ ٣١٣) من طريق أبي هانئ، عن أبي علي الجنبي، عن فضالة بن عبيد، به. وصححه الألباني في «سلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٢٥).

(٢) «فيض القدير» (١٥٠٠). وانظر: «الاستعداد للموت» (ص: ١٨٨).



المبحث الثامن

باب ما جاء في التواصي بالموت على الإسلام

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[البقرة:١٣٠، ١٣٤].

قال الطبري في «تفسيره» (٣/ ٩٣): «قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾، ووصى بهذه الكلمة. عنى بـ«الكلمة» قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهي«الإسلام» الذي أمر به نبيه ﷺ، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له. ويعني بقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾، عهد إليهم بذلك وأمرهم به. وأما قوله: ﴿وَيَعْقُوبُ﴾؛ فإنه يعني: ووصى بذلك أيضًا يعقوب بنيه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إن قال لنا قائل: أو إلى بني آدم الموت والحياة، فينهى أحدهم أن يموت إلا على حالة دون حالة؟

قيل له: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت. وإنما معنى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: فلا تفارقوا هذا الدين -وهو الإسلام- أيام حياتكم.

وذلك أن أحدًا لا يدري متى تأتيه منيته؛ فلذلك قالا لهم: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مناياكم من ليل أو نهار؛ فلا تفارقوا الإسلام، فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربكم ساخط عليكم، فتهلكوا».

وقال البغوي في «تفسيره» (١/ ١٧٠): «معناه أن يا بني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾: اختار لكم الدين؛ أي: دين الإسلام؛ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، مؤمنون، وقيل: مخلصون، وقيل: مفوضون، والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام، معناه: داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، وعن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه قال ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: محسنون بربكم الظن».

وقال ابن عطية في «تفسيره» (١/ ٢١٣): «وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظٍ موجزٍ يقتضي المقصود، ويتضمن وعظًا وتذكيرًا بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى؟ فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه من وقت الأمر دائبًا لازمًا، وحكى سيبويه فيما يشبه هذا المعنى قولهم: لا أرينك هاهنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه؛ فإنما المقصود: اذهب وزل عن هاهنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيدُ مَعْنى الغضبِ والكراهية، ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال».

وقال القاسمي في «تفسيره» (١/ ٤٠٤): «﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: ما كنتم حاضرين حينئذٍ، فـ(أم) منقطعة مقدرة بـ:«بل» والهمزة، وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ.

والشهداء جمع شهيد. أو شاهد بمعنى: الحاضر، وحضور الموت: حضور مقدماته ﴿إِذْ قَالَ﴾؛ أي: يعقوب لبنيه، وهم: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، ويوسف، وبنيامين، ودان، ونفتالي، وجاد، وأشير، وهم الأسباط الآتي ذكرهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِيۖ﴾؛ أي: أي شيء تعبدونه بعد موتي، وأراد بسؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك».

وقال السعديُّ في «تفسيره» (ص: ٦٧): «﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: مقدماته وأسبابه؛ فقال لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِيۖ﴾؟ فأجابوه بما قرت به عينه؛ فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ فلا نشرك به شيئًا، ولا نعدل به أحدًا، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب؛ لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا؛ فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية».

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

قال الطبريُّ «تفسيره» (٧/ ٦٤): «يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: يا معشر من صدق الله ورسوله ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، خافوا الله وراقبوه بطاعته واجتناب معاصيه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، حق خوفه، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾، أيها المؤمنون بالله ورسوله ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لربكم، مذعنون له بالطاعة. مخلصون له الألوهة والعبادة».

وقال القاسمي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٩): «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ أي: حق تقواه، وذلك بدوام خشيته ظاهرًا وباطنًا والعمل بموجبها. وروى الحافظ ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال في معنى الآية: هو أن يُطَاع فلا يعصى، وأن يُذْكر فلا ينسى، وأن يُشْكر فلا يكفر. ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعًا، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». قال ابن كثير: والأظهر أنه موقوف، والله أعلم.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: مخلصون نفوسكم لله تعالى. لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾[النساء:١٢٥]. وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: لا تموتن على حالٍ من الأحوال، إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه، كما ينبئ عنه الجملة الاسمية. ولو قيل (إلا مسلمين) لم يفد فائدتها.

والعامل في الحال ما قبل (إلا) بعد النقض. وظاهر النظم الكريم، وإن كان نهيًا عن الموت المقيد بقيد، هو الكون على أي حال غير حال الإسلام؛ لكن المقصود هو النهي عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذي هو الكون على حال الإسلام حينئذٍ. وحيث كان الخطاب للمؤمنين، كان المرادُ إيجابَ الثبات على الإسلام إلى الموت. وتوجيهُ النهي إلى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ١٤١): «هذا أمرٌ من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك، ويثبتوا عليه، ويستقيموا إلى المات؛ فإن مَنْ عاش على شيءٍ مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداومًا لتقوى ربه وطاعته، منيبًا إليه على الدوام، ثبته الله عند موته، ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه؛ كما قال ابن مسعود: «هو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا

ينسى، ويشكر فلا يكفر»، وهذه الآية بيانٌ لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها؛ فكما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن:١٦]، وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدًّا، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين؛ فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى».

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩].

قال الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٥٩): «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ﴾ الموت، الذي هو مُوقَن به. وقيل: يقين، وهو موقَن به، كما قيل: خمر عتيق، وهي معتَّقَة».

ثم روى بإسناده إلى قتادة، قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩] قال: «يعني الموت».

وقال السمعاني في «تفسيره» (٣/ ١٥٦): «قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩]؛ أَي: الْمَوْت. فَإِن قَالَ قَائِل: أما كَانَ يَكْفِي قَوْله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾؛ فَمَا فَائِدَة قَوْله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾؟.

قُلْنَا: لَو اقْتصر على قَوْله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ لَكَانَ إِذا عبد مرَّةً خرج عَن مُوجب الْأَمر؛ فَقَالَ: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ ليدوم عَلَيْهَا إِلَى أَن يَمُوت، وَهَذِه الْآيَة فِي معنى الْآيَة الَّتِي ذكرهَا من بعد، وَهِي فِي مَرْيَم، وَهِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾[مريم:٣١]».

وقال البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٧): «﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحِجر:٩٩]؛ أي: الموت الموقن به».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٤٣٥): «﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحِجر:٩٩]؛ أي: الموت؛ أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات؛ فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليمًا كثيرًا».

وهناك وصايا لأصحاب رسول الله ﷺ في هذا الباب؛ فمن ذلك:

ما رواه عبد الرزاق في «مصنفه»[1] بإسناده عن أنس بن مالك قال: كَانُوا يَكْتُبُونَ فِي صُدُورِ وَصَايَاهُمْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ فُلَانٌ: إِنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[الحج:٧] وَأَوْصَى مَنْ تَرَكَ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَيُصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ وَأَوْصَاهُمْ بِمَا أَوْصَى إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

ومن وصايا السلف:

ما رواه أبو سليمان ابن زبر الربعي في كتابه «وصايا العلماء عند حضور الموت»[2] بإسناده عن حماد قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ دَاوُدُ ابْنُ أَبِي هِنْدٍ: «أَوْصَى بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَلُزُومِ طَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ، وَأَوْصَاهُمْ بِمَا أَوْصَى بِهِ يَعْقُوبُ بَنِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ

(١) (١٦٣١٩)، وكذلك رواه الدارمي في «السُّنن» (٣٤٨٣)، وصححه الألباني في «الإرواء» (رقم: ١٦٤٧).
(٢) (ص: ٦٢).

لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢] وَدَاوُدُ يَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَبِالْقَدَرِ كُلِّهِ، عَلَى ذَلِكَ يَحْيَا، وَعَلَى ذَلِكَ يَمُوتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وروى ابن أبي شيبة في «المصنف»، والدارمي في «السنن»[1] عن هشام بن حسان قال: كَانَ أَوَّلُ وَصِيَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: «هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ: أَنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَوْصَى بَنِيهِ وَأَهْلِهِ، أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَأُوصِيهِمْ بِمَا أَوْصَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

❀❀❀

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٠٣١) عن هشام بن حسان عن ابن سيرين به، والدارمي (٣٤٨٢) عن ابن عون عن ابن سيرين به.



المبحث التاسع

باب الحث على الوصية قبل الموت لغير الورثة

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:١٨٠].

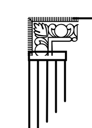
قال الطبريُّ في «تفسيره» (٣/ ٣٨٤): «يعني بقوله تعالى ذِكْره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، فُرض عليكم، أيها المؤمنون، الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، والخير: المال للوالدين والأقربين الذين لا يرثونه، بالمعروف: وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمد الموصي ظلم ورثته ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به».

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٨٥): «أي: فرض الله عليكم، يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ أي: مالًا، وهو المال الكثير عرفًا، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد، دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو: الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى».

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ

ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾[المائدة:١٠٦].




فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة